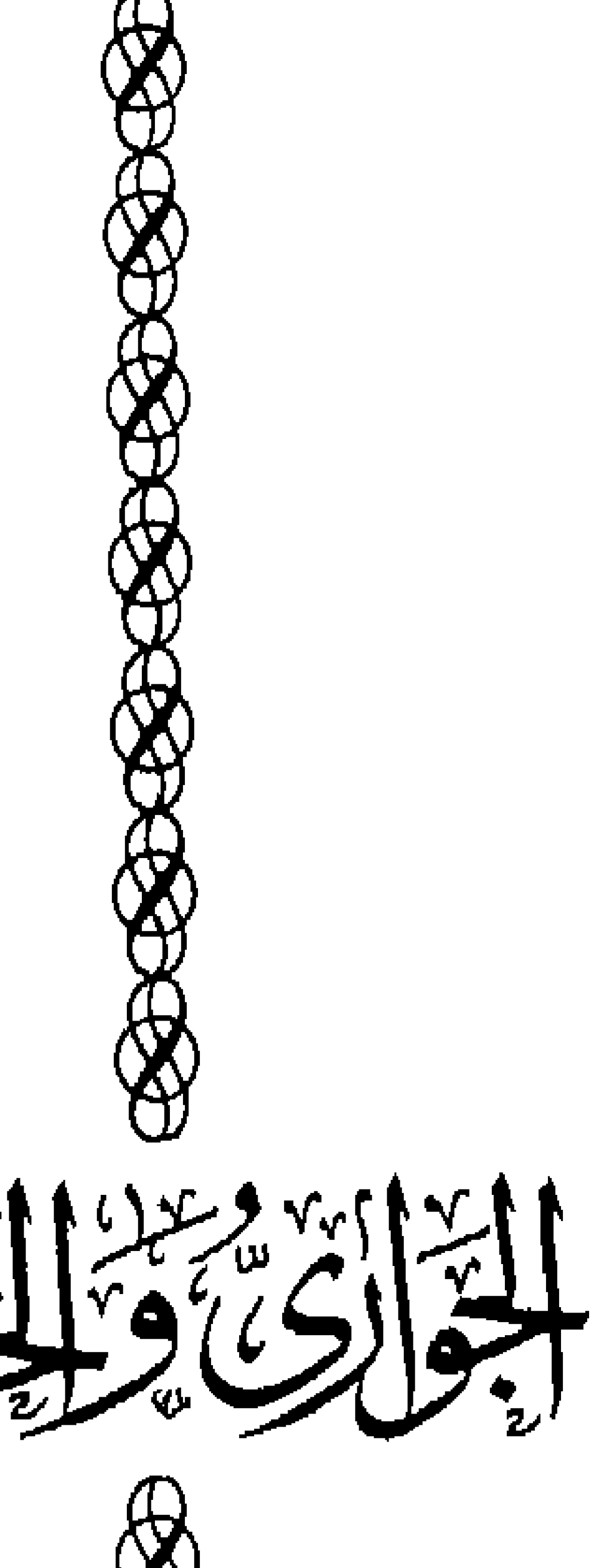
جمال بدران

الجواري والخطايا



الجواري والخطايا

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م



الدار المصرية اللبنانية

طباعة • نشر • توزيع

١٦ شارع عبدالخالق ثروت - تليفون ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٣٦٧٤٣ - فاكس: ٣٩٠٩٦١٨ - برقياً: دار شادو - ص.ب: ٢٠٢٢ - القاهرة

AL-DAR AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH — PRINTING — PUBLISHING — DISTRIBUTION

16 ABD EL KHALEK SARWAT St. P.O.Box 2022 Cairo-Egypt PHONE: 3936743-3923525 FAX: 3909618 CABLE DARSHADO

جمال بدران

الجوارى والخطايا

الناشر
الدار المصرية اللبنانية


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

لماذا جعلت هذا الموضوع القديم قضية هذا الكتاب الحديث ؟ ربما يكون هذا هو السؤال الذى يسيطر على أغلب الأذهان .

وللردّ عليه .. أطرح تساؤلاً آخر : هل انتهى عصر الجوارى والحظايا بانتهاء العصور الوسطى ، فلم نعد نعثر لهم على فلول أو أشباه؟

إذا لم تكن لنا الفرص المتاحة لطرق أبواب الديار ذوات الأسوار العالية ، وإذا لم تكن لدينا القدرة على ولوج أماكن اللهو والتسّرى ، وإذا لم يكن لدينا الوقت لتحديد آماد اقتناء الجوارى الحظايا المحدثات – طالت أوقاتهن أو قصرت – فلا أقل من أن نتذكرما تقع عليه أعيننا فى الصحف السيّارة من أخبار: بيع أب لأولاده فى الهند ، وعرض أُمٌ لأطفالها على المشترين الأثرياء فى البرازيل وإيطاليا .. وما إلى ذلك ..

وعلى قلة ما يرد على صفحات هذه الصحف من هذه الأنباء المباشرة ، واعتبارها مؤشرات كافية لاستمرار هذه الظاهرة باستمرار تواصل الأجيال وتشابه الأحوال ، فإن هناك من الصفقات والاتفاقات ما لم تصل إليه عيون الإعلام أو أنوفها .

وطالما أن الماضى هو المتاح لنا ، والمسموح بتداوله بيننا ، بانقضاء المدة التى يحرم فيها الولوغ فيه ، بهلاك أصحابه وبقاء آثارهم مسجّلة فى الكتب والأشعار شاهدة عليهم . فلربما يكون من المفيد الانتقاء من بينها ما يمكن أن

يتطابق أو يتشابه مع ما يقع فى العالم الحديث من سلوكيات و أحداث مُجَرَّمَة، أو آثام صارت محرَّمة

وإذا ما تذكرنا أن الجوارى والخطايا لم يقتصر وجودهن على بلاد الروم وفارس ، وإنما امتد إلى قلب الجزيرة العربية فى جاهلية ما قبل الإسلام .وإذا عرفنا أن وجودهن قد تعدَّى صدر الإسلام إلى الدولتين : الأموية والعباسية ، وما انتهى كل منهما إليه من إيالات وولايات مفتتة ـ تأكد لدينا أن الأمر لم يكن مرتبطاً بجاهلية أو اعتناق ملّة ، بل هو لصيق بالإنسان أينما وحيثما كان.

ومن مفارقات لغتنا العربية أنَّ كلمة «جارية»من معانيها المتعددة : الْفَتِيَّةُ من النساء بيِّنَة الجراية والجرى ، وهى أيضاً المِنَّةُ أو النِّعْمَةُ مِنَ الله على عِبَادِه.. لهذا قالت العرب حَسَنَةٌ جارية بمعنى سارية .. فلا وجه للعَجب إذا ما تأصلت هذه المعانى فى ضمير الإنسان العربى على تتابع القرون . والْحَظِيَّة : هِيَ الفتاةُ ذاتُ الْمَكَانَة أو المنزلة لدى مولاها أو سُلطانها ، وتُطْلَقُ أيضاً على المَرأة التى تُفَضَّلُ على غيرها فى المَحَبَّة، مع ضرورة استدراك أن الحُظْوَة لم تكن تقتصر على المرأة دون الرجل ، فمن الذكور من كان يتمتع بميزة خُلقية ، أو موهبة فنية ، أو قدرة على التقرب بالتذلل تارة ، والنفاق أو الدّس والنميمة تارة أخرى، حتى يحوز صاحبها رضا وليّه أو سيّده ، أما الحَظِيَّة فقد تشترك مع الحَظِيِّ فى كل مواهبه أوبعضها ، وغالباً ما تزداد وتتفوق عليه بميزة الإغراء الأنثوى ، لذلك ذاع صيت الجوارى والحظايا ، فعرفنا منهن أسماء كثيرة ، ولم نعثر على من اشتهر بذلك من العبيد الذكور من إلا فيما ندر .

ومع أنه كان فى داخل تلك الطبقة من هُمْ فى درجات متفاوتة فى

الخظوظ أو الحظوة ، وأن بعضهم نجح فى اسْتعتاق رقبته أو طَمْسِ معالم عبوديته من الذاكرة ، وأن مصادر الاستعباد أو الاسترقاق كانت سبْـياً أو سَطْواً أو شراءً من أسواق النخاسة ، أوإرْثاً عن الآباء ، أوتخففاً من أعباء الإنفاق – مع كل ذلك فإن التطورات التى لحقت بها على مدى العصور قد عدلت من أوضاع كل منها ، ومفاهيم كل من الأثرياء والفقراء تجاهها ، بل ومشاعر كل طائفة من هذه الطبقة تجاه الطوائف الأخرى فيها.

وهكذا تشعبت دروب الرقيق ، وتعقدت مدلولات الكلمة لتظهر حواجز فاصلة بين كل فئة وأخرى ، فانكمشت الكلمة الأصلية لتصبح كلمة « رقيق » أو « عبد » مقصورة على أولئك الذين يعملون فى إقطاعيات سيّدهم صاحب الأرض ، وانطلقت لفظة جارية لنعمّ كل من هم فى مجالس الأُنس وحانات الطَّرَب ، ومَواخِر الجنس من مشتغلات بالرقص ، أو بالغناء أو بالسَّقْى أو بالعمل على راحة المرتادين والزبائن طلاب المتعة . وأظن أن أبصارنا لا تغفل عن قراءة أنباء منع مجموعات من الفتيات من السفر إلى دول أخرى للعمل فى الملاهى ، ولاينهض المنع إلاّ على أساس صِغَرِ سِن المسافرات ، أو نقص أوراق السفر ، وما شابه هذا من الشكليات التى تسقط فور اكتمال السن أو استكمال الورق .

نحسّ من كل هذا أن اللّهْوَ وخُدّامَهُ ، قرناء للبشرية فى الماضى والحاضر .. بل والمستقبل ، ولست فى ذلك مغالياً ، لأن عشرين قرناً من الميلاد وما قبلها من قرون كفيلة كلها بمساندة هذا القول ،لما احتوته جميعاً من أفانين اللهو .. والدليل على صحة هذا أنه بعد أن كانت تؤدى للهو ذاته

كترفيه ، صارت تبتغي كوسيلة لتحقيق أعراض عملية أخرى ، ومن ثم اكتسب اللهو قوة لاتخاذه مسحة الجدّية فى إنجاز أعمال تجارية أو أمنية ، أو مناسبات اجتماعية وسياسية .كذلك لا أكون مغالياً إذا قلت : إن اللَّهْوَ وأفانينه صار حرفة لايجيدها إلا الجوارى والحظايا ، ومن يلحقون بهن من أصحاب الخبرات المعاونة أو الطفيلية .

وقد كتب الأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد فى كتابه القيم « القيان والغناء » فى الصفحة الثانية والأربعين ما نصه : « ولم يكن عمل الإماء مقصوراً على الخدمة وتولىّ الأعمال ، وإنما كن يُتَّخَذْنَ متاعاً للرجل ، ويتخذن حليلات حيناً وخليلات فى أكثر الأحيان » .

ويصرح كاشفاً فى مكان آخر . « وإذا كانت المرأة المَسْبيّة ذات جمال وفتنة أو ذات مكانة فى قومها ، كانت تربأ بنفسها عن الخدمة ، وتطمع فى أن تفوز بسيد القبيلة أو رئيس القوم ، فتتصدّى له لتصيد قلبه فيتخذها لمتعته » .

وفى هذا يقول أبو ذُؤيْب الهُذَلى :

عَشيَّة قـامـت بالغـنــاء كـأنــهـا   عقيلة سنى تُصطفى وتـغُوجُ

وها هو امرؤ القيس يربط بين اللهو والجدّ ، والجدّية عنده الحرب فيقول : كـأنّى لـم أركَـبْ جَـواداً للـذَّةٍ   ولم أتبطن كَاعباً ذات خلْخالِ

ولمْ أَسْبأَ الـزّقّ الَّروىّ ولم أَقُـلْ   لِخيّلى:كُرّى كَرَّة بعد إجفالِ

وقد اتسعت ظاهرة الاسترقاق قديماً ، وعمّت سائر الأنحاء فى مشارق الدولة العربية ومغاربها ، فلم يعد اللهو مبتغاها ، ولا احترافه نهايتها ،وإنما أدى

ما كان يدرّه الاتجار فيه إلى دخول طائفة أخرى غير أولئك النخاسين، ألا وهى طائفة العاملين فى اللهو أنفسهم ، ليزدادوا ربحا على أرباحهم ، ويزيدوا تسلطهم على أفئدة الحكام والسلاطين . لذلك وجدنا إبراهيم الموصلى وابنه إسحاق قد صارا من أكبر تجار الجوارى ، لكنهما ـ والحق يُقال ـ أدخلا على هذه المهنة تطويراً محموداً ، إذ كانا يعلّمان الواعدات من الجوارى أصول الغناء، وطرق العزف على آلات الموسيقا ومستحدثات الطرب واللهو ، مما كان يزيد من قيمتهن لدى المشترين من السراة ..وكُلُّه بثِمنه .

كذلك كان من النَّخَّاسين مَنْ كان يتحسس مواضع الشعر فى سلعهم من الجوارى اللائى يتمتعن بهذه القدرة ، فيتكفلون بتدريبهن ، ويحتضنون مواهبهن ، فيزدادون بهن وفرة وثروة .

لهذا وذاك تغلغلت مشاعر جديدة هَذَّبت الذوق ، وارتقت بالتعبير إلى آفاق لم تبلغها من قبل ، عمادها السّلاسة والبساطة مع عمق المشاعر ،وطرقت أبواباً لم يدر بخلد السابقين اقتحامها أو حتى طرقها ، فصار السهل الممتنع شعار نشاطات الإنسان كافة .

وقد نَقل الشعبى عن سيدنا علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، أنه قال « إن القلوب تملّ كما تملّ الأبدان ، فابتغوا لها طرائف الحكمة »

لذلك فإن مَنْ تَلَقَّفَ هذا القول استند إليه فى مزج مجالس السلاطين والحكام الجادّة بمطارحات الشعر ومساجلات الشعراء ومنافسات الغناء والمغّنيات . بل إن من الرجال الأتقياء مَنْ رَدَّدوا حديث سيّدنا رسول الله صلىّ

الله عليه وسلم :«حُبّب إلىَّ من دنياكم ثلاث : النساء ، و الطّيب ، وجُعِلَتْ قُرّة عينى فى الصلاة » .. صدق رسول الله .

فتوسعوا فى الإباحة واستباحوا أن تضم المجالس نساءً ورجالاً على السواء، مع عدم المساس طبعاً بحق الله فى أداء الصلاة له.

وبرّر محترفوالتبرير الضعف البشرى فى الجنس ـ عن جهل وسوء تبرير ـ بأن من الأنبياء عليهم السلام من افتتن بالنساء كداود ويوسف عليهما السلام ، وحاش لله أن يُنْسَبَ ذلك إلى أنبياء الله المعصومين

فلا عجب إذا ما روّج النخاسون لبضاعتهم النسوية بقولهم .. فالله ـ جلّ اسمه ـ قد ذكَرَ الحور العين بأكثر مما ذكر الوِلْدَان ، وأن ممّا صان الله به النساء أنه جعل فى جميع الأحكام ـ ومنها الإشراك بالله ، وقتل النفس ـ شاهدَيْن به كما جعل الشهادة على المرأة إذا رُمِيَتْ بالزِّنَى أربعة مجتمعين غير متفرقين فى موضع يشهدون أنهم رأوه مثل المِيل فى المكحلة .. وهذا بالطبع شيء عسير تحقيقه ، مما يدل على أن الله الحليم الستّار أراد التثبت قبل إصدار الحكم ، الذى هو الرجم بالحجارة .

ثم إنَّ اللهَ تعالى خَلَقَ الرجال والنساء ، فكيف نمنع هؤلاء عن هؤلاء؟؟

ويواصل النخاسون تحلية بضاعتهم فى العصور الغابرة بقولهم .. لو حضرت مجلساً ضم حريماً ، لوجدت أن ريح الجارية أطيب، وثيابها أعطر ، ومشيتها أحسن ، ونغمها أرق ، والقلوب إليها أميل .

هكذا كانت مواصفات مجالس الأنس ، أو منادمات الطرب لدى أغلب خلفاء الأمويين وسائر خلفاء العباسيين .

ولو أردنا ذكر الشعر المشبب بالجوارى لما وسعه هذا الكتاب كله ، ومن ثم ننتقى منه ما قاله الشَّنْفَرى حين قال :

وَدَقَّتْ وَجَلَّتْ وَاسْبَكَرَّتْ وأُكْمِلَتْ ...
فَلَوْ جُنَّ إنْسَانٌ مِنَ الحُسْنِ جُنَّتِ

ومعنى اسبكرّتْ : اعتدلت قامتها وانتصبت

ووجدنا أبا نُواس فى مفاضلته بين الجارية والخمر يقول :

فالخمرُ ياقُوتَةٌ والكأسُ لؤلؤة
مِنْ كَفِّ جَارِيَةٍ مَمْشُوقَةِ القَدِّ
تَسْقِيكَ من عينها سحراً ، ومن يدها
خَمْراً فمالك من سُكْرَيْنِ من بُدِّ
لى نَشْوَتَانِ ولِلنُّدْمَانِ وَاحِدَةٌ
شىءٌ خُصِصْتُ به من بينهم وَحْدِى

فجمال الوجه واعتدال القوام من شروط اقتناء الجارية ، والاقتران بحظيّة لتصبح زوجة مطلوب فيه أن تحافظ على مؤهلات قبولها زوجة من البداية .

ويحكى أحد المُجّان أن رجلاً طلّق امرأته ، فمرّ رجل فى بعض الطرقات فسمع امرأة تسأل أخرى عنها ، قالت : « البائسة طلقها زوجها ! » فقالت : « أحسن ، باركَ الله عليه ! » .. فتعجب الرجل وقال لها : « يا أَمَةَ الله، من شأن النساء التَعصّب بعضهن لبعض وأسمعك تقولين ماقلت ! »

فأجابت : « ياهذا لِو رأيتها لعلمت أن الله تعالى قد أحَلّ لزوجها الزِّنَى من قبح وجهها » !

والحكاية بهذا المضمون تُنْبِي عن تحلل الراوى أصلاً ، ومن المرأة التى تتطاول على ما أبغضه تعالى فَتَرَغَّبُ فيه. لكن هذا لاينفى ما تتطلبه ضرورة الوجه الحسن فى الزوجة أو الجارية .

هذا التحلل الخُلقى فى مثل تلك المجتمعات لا يعنى خلوها تماماً من بارقات أمل فى الاستقامة والتزام الجادة .

فلقد سأل يوماً معاويةُ عَمْرَو بن العاص – وكان عنده شباب من قريش: « يا أبا عبد الله ، ما اللَّذَة » ؟. فقال : «مُرْ شباب قريش فليقوموا » . ولمّا قاموا قال : « هى إسقاط المروّة » .

ربما كان تحفّظ عمرو بن العاص فى الإجابة أمام شباب قريش تظاهراً بالتحشّم . لكن كان الأجدر به أن يذكر هذه الحقيقة أمام أولئك الشباب ليكون عظة لهم ونصحا .. فكما أن كلمة اللذّة مغرية للبشر عامة وللشباب خاصة ، فإن المروءة أيضاً لها وقعها عند الشباب .. فلا يذهب خيال شاب منهم بعيداً عن المروءة المرجوّة !! أو يشتط بهم الخيال إلى مواضعات يصعب رجوعهم عنها .. وهذا عين ما جرى فى مجالس العصرين الأموى والعباسى ، فارتدّت إلى ما كانت عليه فى الجاهلية من منادمات اختلط فيها الحابل بالنابل.

ولو أطللنا على ما كان الفُرْس يفعلونه لاختبار أمانة النديم ومدى إخلاصه لكسرى ، إذ كان كسرى يدفع بجارية من جواريه الحسان إلى

النديم الجديد ، تُلقى عليه شِبَاكَ حبّها ، وتستميله بشتى وسائل الاستمالة والإغراء ، فإذا ما ضعف أمام الجارية وهام بها حُبّاً ، استبعده كسرى على الفور من القصر كله .. لعدم أمانته وحفاظه على جوارى كسرى . أما إذا صمد أمام الجارية ، واجتاز الامتحان الأول ، انتقل إلى اختبار آخر بجارية أكثر دُرْبَة على فنون الإغراء والاستمالة ، ولايحظَى النديم بثقة كسرى إلاّ بعد اجتيازه الاختبار الثانى .. وينفتح له باب الترقى فى سلك الندماء ، فيأخذ فى التزحزح مقترباً شيئاً فشيئاً من كرسى كسرى كلما حذق التسلل إلى قلبه وعلا درجة .

أقول لو أطللنا على هذا النموذج الفارسى ، لوجدناه يتخذ وضعه فى قصور بنى العباسى خاصة ، مثلما ساد النموذج البيزنطى عند الأمويين .. فقد كان معاوية نفسه لايسمح فى مجلسه بوجود مغنين أو تعاطى مشروبات محرّمة ، وإنما كان يغضّ الطرف عن منادمات ابنه يزيد وسهرات الغناء فيها . لكن عبد الملك حاول – والحق يقال – أن يصبغ مجلسه بشىء من الجدية ، فكان يدعو الأخطل وسائر الشعراء إلى قصره ، ومع ذلك صار الشعبى عامل البريد نديمه لسرعة بديهته وخفة ظله . ثم وجدنا بدعة ابتدعها الوليد بن يزيد .. بدعة نقل مجالس المنادمة إلى الأديرة بعيداً عن أعين الرقباء من العامة فى قصره .

وتطور الأمر لدى العبّاسيين .. إذْ وضع عبدالله السفّاح أوّل نظام نوْبات لحضور جلسائه ، فكان يعقب بين أصحابه وبين مسامريه . لكن ما إن تولّى المنصور الخلافة حتى فتح أبواب مجالسه للوعّاظ ، وكان على رأسهم

الأوزاعى، ولا أدرى أكـان ذلك تمسّكاً منه بالروح الدينيـة أم تمسّحـاً منه بأهدابه ، ولقد قيل إن الوعّاظ اعتبروا أنفسهم مكلفين مراقبة حياة الخلفاء فى قصورهم وتوجيه النقد لهم إذا ما طرأ على حيواتهم ما يخلّ أو يخالف مبادئ الإسلام . أما المهدى فكان أول من رفع الستار الحاجز بينه وبين ندمائه ، وربما نفهم ذلك الآن على محمل تأصّل الروح الديمقراطية لدى الخليفة المهدى، ولكنه – غفر الله ذنبه – كان يصرح قائلاً : « إنما اللذة مشاهدة السرور » ، وهذا يَدُلُّ على المجالسات الخليفية من عودة إلى مجون المنادمات الجاهلية .. والمهدى هو أول من نُقل عنه معاقرة الخمر من العباسيين الخلفاء ومجالسة ندمائه الذين كان فى مقدمتهم إبراهيم الموصلى رائد الغناء العربى .

أما الهادى الذى خلف المهدى فكان مولعاً بالشراب ، واشتهر من ندمائه عيسى بن دأب الذى حدث عنه بكثير من نوادره وطرائفه

إلى أن حل عهد هارون الرشيد ، عهد الأُبَّهَة والفخامة الفارسية .. فوضع قواعد منظمة للندماء كموظفين لديه ، لا يغيبون عن ناظريه إلاّ لفترة محددة ، يعودون بعدها أكثر نشاطاً وقُدْرَة على إدخال البهجة والسرور على قلبه ، أو بالأصح تغيير نوع هذا السرور وطعم هذه البهجة ، سواء كان بالشعر على لسان أبى العتاهية أو بالغناء لإبراهيم الموصلى وجواريه ، لذلك فإنه قسّم الندماء والجلساء إلى طبقات ، وخصص داراً لهم يستدعيهم منها كلمّا عّن له ذلك .

لكنه لم ينس أن يستكمل صورة مجلسه بوُعّاظ يسوقون له النصح ووجهات النظر ، وأوجه التبرير لزلاّت البشر ، أو تجنب الوقوع فى مزالق

التحريم والمحرمات ، وكم ترددت أسماء أبى يوسف القاضى وابن السمّاك الزاهد والأوزاعى فى هذا النوع من مجالس هارون الرشيد الذى كان يوزع مسائله عليهم ، ثم ينتقى من ردودهم ما يطيب له أو يلقى هوًى فى نفسه :

ففى واحدة من هذه المسائل .. سأل الخليفة جليسه الأوزاعى عن لبس السواد .. فأجاب بلا مواربة : « لا أُحرّمه ولكن لا أكرهه ». فواصل الخليفة سؤاله عن سبب ذلك ، وواصل هو بدوره الإجابة : « لأنه لا تُجلى فيه عروس، ولا يُلبّى فيه مُحْرِم، ولا يكفن فيه ميت » .

وهنا تململ الرشيد من صراحة الأوزاعى بإعلان عدم ارتياحه لشعار بنى العباسى ، ثم التفت إلى أبى يوسف القاضى يسأله لعله يشفى غليله .. فقال مطمئناً : « يا أمير المؤمنين ، النور فى السواد » . وأردف قائلاً : « وفضيلة أخرى ياأمير المؤمنين »فسأله الرشيد والبشْر يعلو وجهه : « ماهى يا قاضى القضاة » ؟ قال أبو يوسف : « لم يكتب كتاب الله إلاّ به ». ولاعجب أن اهتز الرشيد طرباً لهذه الإجابة الذكية . وقس على هذا نظائره من سفاسف تشغل البال، وتلقى لدى الجلساء اهتماماً وبحثاً عن الحلّ فى الحال .

وسار الزمان بالندامى ومنادمات الأمين ومَنْ خلّفه من الإخوة والأبناء والأحفاد ، كل منهم يضيف إلى مجلسه بدعة ، أو يزيد فى عدد الجوارى تحفة ، أو تتعدد أفانين الاختبار والاختيار ، وتتربع على عرش القلوب كل من حظيت بثقة مولاها وصاحبها ، وتأخذ بالألباب كل من أطاحت بأكبر عدد من الندامى غير الخلصاء ، حتى وجدنا نجمات الدولة من الجوارى قد احتللن

الصدارة ، فَخَبَا ضوء كُل من عَداهُنَّ من السادة وأصحاب الحقوق .. وسبحان مُغَيِّر الأحوال .

وعندئذ يصح أن نطرح السؤال الأخير : لماذا كانت من بين الجوارى صاحبات حظوة ، تَمَيَّزْنَ عن سائر صويحباتهن .. فَصِرْن حَظايا؟ أهو جمالهن المبهر الآخِذُ بالقلوب ؟! أهى القدرة على قَرْضِ الشعر وترديده أو التغنّى به بأعذب الأصوات ؟! لقد حكت الكتب عن مشاركة الكثيرات فى هذه الصفات ، ولكن الحظايا مِنْ بينهن قليلات هن اللائى حُزْنَ الثقة لدى مَواليهنَّ ، فَصِرْن الآمِراتِ الناهيات السيدات للقصور ، ومنهن مَنْ صِرْنَ أمّهات طيبات للخلفاء .. وهذا ما سوف نرى شواهده فى الحظايا التاليات ، شواهد دامغة على أن الثقة كانت تولد فى المخادع !!

جمال بدران

الجوارى فى العصر الجاهلى

الخلفية الاجتماعية لمَوَاطِن جوارى الجاهلية :

مثّلت الجوارى طبقة واسعة الانتشار في المجتمع الجاهلى .. فهى فى المدينة كما فى الطائف وخيبر ووادى القرى ودَوْمَة الجندل واليمامة ، كذلك وجدناها طبقة فى أطراف أو حدود الجزيرة العربية لدى الحيرة وغسان، كما هى موجودة فى مكة وحضرموت .

وارتبط انتشار طبقة الجوارى بأسواق هذه الجهات ، باعتبار أن الأسواق هى مصادر ومراكز النشاط التجارى والفنى أيضاً ..

كما لم يقتصر عمل هذه الطبقة المترامية الجهات على نوع معين دون غيره ، وإنما تعددت نشاطات الجوارى إلى الحد الذى تغلغلت به فى سائر اختصاصات السادة أُوربَّات الخُدور من الحرائر.

من هذه الأعمال قيادة الجِمال بِشَدِّ مقاودها فى الطريق ، أو ردها إلى أحيائها

وفى ذلك يقول زهير بن أبى سُلْمَى :

رَدَّ القيانُ جِمَالَ الحيِّ فَاحْتَملوا   إلى الظَّهيرة أمرٌ بينهـــم لَبِكُ

ومن هذه الأعمال طَهيُ الطعام   وتجهيزه وتقديمه إلى سادتهن

وفى ذلك يقول طَرَفَةُ بن العبد

تبيــت إمــاء الحـــىِّ تطــهــى قُـدورَنـــا

ويَــأْوى إلينـــا الأشْـعـــثُ المتجـــرف

ومن ثَمَّ كان إشعال النار لطهى الطعام عليه من اختصاص الجوارى

وفى ذلك يقول طَرَفة أيضاً

لا أرى إلاَّ النعـــام بـــــه   كالإمـــاء أشـرفَـتْ حُـزَمَـه

ومن أعمال الجوارى أيضاً بيع الخمور وإدارة كئوس الشراب ، مما كان يؤدى بدوره إلى تلبية نداءات الأجساد المتأججة ، وقد أدى إليه هذا وذاك إلى نشأة البغاء والغناء . وربما كان شيوع هذا بين الجوارى أن صارت لفظة بَغِيٌّ مساوية للجارية .. وفى هذا روى الأعشى :

والبَغايا يركُضْن أكْسِيَةَ الإضـ   ـريح والشَّـرْعَـبِىَّ ذاالأذْيـال

فالبغايا هنا ـ كما شرح ابن السكيت والأصمعى ـ هن الإماء وأولادها ـ أى الجوارى وأولادهن .

لكن عمل الجوارى لم يكن مقصورا على الخدمة أوالقيام بالأعمال السابقة ، وإنما كن يبتغين للرجال متاعا ، فيتخذن حليلات حيناً ، وخليلات فى أغلب الأحيان .

ومن الجوارى اللائى جىء بهن مَسْبِيّات من هجمة أو حرب ، مَنْ كُنَّ على قَدْرٍ من الجمال والفتنة ، أو على قَدْ ر من المكانة فى قَوْمِهِنَّ الذين أُغير عليهم .. فكنّ يربأن بأنفســهن عن الخدمة ، فتطمع الواحدة منهن فى أن تفوز بقلب سيّد القبيلة أو شيخ العشيرة ، فتواصل تعرّضها له لكى تلفت نظره ، وتأخذ بلُبّه فتصيد قلبه، ويتخذها لمتعته . وفى ذلك يقول أبو ذؤيب

الهذلي :

عشية قامــت بالغنــاء كأنهــا		عقيلةُ نهــب تصطفَى وتغوج

ومن سادة الجواري من تجاوزحدّ الاستمتاع ، إلي اتخاذهن سلعة تُباع لإدرار الربح عليهم ، مثل سائر سلع المتاجرة الأخري . حتى إن ابن حبيب كتب في مُحَبَّره مانصه : «كانوا يتكســـبون بفروج إمائهم ، وكان لبعضهن راية منصوبة في أسواق العرب فيأتيها الناس فيفجرون بها .

كما روي عن ابن عباس رضى الله عنه قال :كانت بيوت تُسَمَّى المواخير في الجاهلية ، وكانوا يؤاجرون فيها فتياتهم ، وكانت بيوتاً معلومة للزِّنَى .

وكذلك روي مجاهد وعطاء وقتادة ـ فى تفسير الطبرى ـ أنه: «قدم المهاجرون المدينة وليست لهم أموال ولاعشائر ، وبها نساء يكرين أنفسهن ، وهن يومئذ أخصب أهل المدينة ، لكل واحدة منهن علامة علي بابها لتعرف بها . »

لذلك كلة أنزل الله سبحانه وتعالى على رسوله المصطفى عليه الصلاةوالسلام من سورة النور آيات بينات منها : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ صدق الله العظيم ﴿الآية ٣٣﴾ .

وطبقة بهذه الكثرة وهذا الانتشار ، فضلا عن تنوع أصولهن : إنْ كُنَّ حَبَشـيات أو فارسيات أو روميات أو عربيات ، لانعجب من تأثيرها لا في البنية الاجتماعية للمجتمع الجاهلى فحسب ، بل أيضاً فى الذوق الأدبى عامة، وفى الشعر المُغَنَّى علي وجه الخصوص . فهاهو النابغة الذبياني الذي

بلغ شأواً بعيداً في القدرة علي قول الشعر ونظمه ، ولم يكن أحد من أهل المدينة يجرؤ علي معارضته أو إبراز العيب في نظم شعره ، أو حتي مجرد نقده ـ استطاعت جارية مغنية أن تفعل هذا ، وتظهر للنابغة إقواءه في شعره، وتثبت لأهل يثرب أيضاً أنها أكثر منهم جرأة علي مصارحة الشـاعر الفحل باللحن والإكفاء .. فماذا فعلت ؟ إنها تغنّتَ أمامه بيتين له هما :

أمـن آل مـية رائحُ أو مغتيد   عْجــلان ذا زادٍ وغيرَ مُـزوّدَ
زعَم الـبوارح أن رحلتنا غداً   وبذاكَ خبّرناَ الغرَاب الأسـودُ .

ثم غنت بيتين آخرين .

سقطَ النصيفُ ولم تُردْ إسقاطهُ   فتَنَاوَلَتْهُ واتقــتنا بـالــيد
بمُخَضّبَ رخْــصٍ كأن بنانه   عنم يكاد من اللَطافة يُعقَدُ

فأحست أذن النابغة بهذا الإكفاء في اللحن، وفطن لموضع الخطأ ، ثم اعترف بقوله : «قدمت الحجاز وفى شعرى ضَعَة ، ورحلت عنها وأنا أشعر الناس . » فصارت الجوارى أشبه بالجهاز الإعلامى فى عصرنا الحديث .. بقدرتهن على تشكيل الذوق العام والذوق الفنى ، وتوجيه الرأى العام ، وما زلنا نردد حتى الآن ماردّدَتْهُ نسْوةُ المدينة وجواريها من أ نشودة استقبال رسول الله ﷺ ، حينما وصل مهاجراً إليها برعاية وفضل من الله العلى القدير ..

طلــع البــدْرُ عـلـينــا   مــن ثـنـيّـات الــودَاع
وجَــبَ الشكْــر عـلينــا   مادَعــا للّـــــه دَاع
أيهـــا المبعــوثُ فـيـنــا   جِــئْتَ بالأمــر المطــاع

لهذا يمكننا تقسيم طبقة الجواري إلي فئتين : جواري الفئة الأولي ، وتتبع مالكاً واحداً ، قد يكون ملكاً أو رئيس قبيلة أوشريفاً من أشراف العرب وسادتهم .. وهذة الفئة تقتصر في الإقامة علي القصور والبيوت لإدخال البهجة علي الملك أو السيد في مجالس طرب وأنس : مثل جوارى ملوك المناذرة والغساسنة . أما جوارى الفئة الثانية فهن يَعْملنَ فى الحانات والمواخير ، حيث تدور كئوس الشراب ورءوس السُّكارَى ، وتتميز أزياؤهن بالتحلل والكشف عن مفاتن أجسادهن ، والغرض بيّن من حركاتهن وإشاراتهن بهذه الأزياء .

ولطرفة بن العبد قصائد فى وصف هذة الفئة من الجوارى .. منها :

نداماى بِيضٌ كالنجوم وقَيْنةٌ تروح علينا بين بُرْدٍ ومُجْسَدِ

رحيب قطابُ الجيب منها رفيقةٌ بِجَسِّ الندامى بضة المتجرد

إذا نحن قلنا أسمعينا انبرت لنا على رِسْلها مُطْروفَةً لم تَشَدَّدِ

إذا ارجَّعتْ فى صوتها خلت صوتها تجاوب آظار على رُبع ردى

أما الأعشي فهو أكثر صراحة من طرفة حين يذكر سبب كشف إجزاء من الجسد فى هذه الأزياء .. فيقول :

ورَادِعَةٌ بالمسْك صَفْراء عندنا لجسّ النَّدامى فى يد الدرع مفتقُ.

ولنا أن نتصوّر ما يصحب الغناء والشرب من رقص ولهو فى شتى هذه الحانات التى كانت تتناثر فى شتى أنحاء الجزيرة فى العصر الجاهلى . لذا فإننا إذا قلنا إن الشعر كان ينشط فى تصوير هذا النوع من الحياة الماجنة ، وجب علينا القول أيضاً بأن الحياة لم تكن كلها مجوناً .. وإنما هى خليط من الجد والحرب ، وإن غلبَت عليها الرغبة فى التحلل ..

جرادتا عـاد :

في الأزمنة الغابرة .. كان القحط والبلاء قد أصابا قوم عاد ، مما اضطر بعض القـوم إلى السـير فى الأرض سعيـاً وراء الماء والمرعى ،كـذلك اضطر بعضهـم إلى الاستغاثة بذوى اليُسر من أقاربهم وأصهارهم فى بطاح أخرى . وكان معاوية بن بكر أحد أولئك الميسورى الحال ، الذين قصدهم أخوالهم وأصهارهم من قوم عاد ، فنزل عليه وفد منهم ، فأكرم ضيافتهم ، وأقاموا لديه شهراً يلهون وينعمون ، وكانت الجاريتان وردة وجرادة تُجمتىْ اللهو والترفيه عن ضيوف سيّدهما معاوية .

ولمّا طال مُكث الضيـوف لديه ، ضـاق بهم ، لكنه كـان يسـتحى أن يتململ أو يبدى لهم ضيقه بهم ، فلم يجد آمن مِنْ أن يكشف عن حقيقة تبرّمه بهم إلا لجَارِيتيْه، اللتين اقترحنا عليه أن يلّمح لهم بذلك فى قصيدة من وضعه فى السرّ ، وتتغنيان بها فى العَلَن ، دون أن تصرّحا باسم الشاعر المضيف .

استحسن الرجل اقتراح جاريتيه ، وشرع فى كتابة قصيدته التى ختمها ببيتين خاطب بهما وفد عاد ، وبدأت الجاريتان فى الإنشاد حتى وصلتا إلى خاتمتها :

وأنتم هاهنا فيـما اشتهيتُم ... نهاركُمْ وليلكُمْ التماسـا
فَقُبِّحَ وفدُكم مِن وفد قومٍ ... ولا لقُّوا التحية والسلامـا

ولّما سمع وفد عاد هذا الغناء ، قال بعضهم لبعض : إنما بعثكم قومكم يتـغـوّثون بكم من هذا البـلاء الذى نزل بهم ، وها نحن أبطأنا عليـهم ،

فادخلوا هذا الحرم فاستقوا لقومكم . وتمكن بذلك معاوية بن بكر من إجلاء ضيوفه وفد عاد عن داره .

الملاحظ هنا أن المضيف قد تحرّجَ من مصارحة أو مواجهة ضيوفه .. لأن ذلك كان عيباً بل عاراً كبيراً إذا ما ثبت عليه تملْمله بهم ، وكونه يستعين بجاريتيه وردة وجرادة ـ أو الجرادتين بالتغليب ـ فما ذلك إلاّ لانعدام الكلفة بينه وبينهما ، واطمئنانه لكشف خبيئة نفسه لهما .. وهو أيضا دليل على مدى تمكّن الجاريتين من ثقة سيّدهما فيهما ، ومن ثم قد كان ذيوع صيت الجرادتين راجعاً إلى ثقة سيّدهما في قدرتهما على إنقاذه من الورطة ، وفى اقتناع عرب الجاهلية عامة ، ووفد عاد خاصة ، فيما أنشدته الجاريتان ، وأيضاً التأكد من أسبقيتهما ، فهما من أُوليات اللائى سمعنا عنهن من الجوارى والحظايا .

أسماء وعشْمة :

كانت دار مِقْيس بن عبد قيس ... بن سهم ملتقىً لشباب قريش قبل الإسلام ، يلهون فيه وينفقون ، وكان من أولئك الشبّان الخلعاء أبو لهب بن عبد المطلب ، وأبو مسافع الأشعرى ، كما كان من القائمين على خدمتهم ديك ودبيك ، وآخرون من الفتيان ، وكانت تغنى لهم جاريتا مقيس.. اسماء وعشـمة .

وذات ليلة نفد الشراب فيها والمال ، وألحت الحاجة بهم أن يشربوا ، فأخبرهم ديك ودبيك أن قافلة أقبلت من الشام محملة خمراً ، وأن جمالها مناخة فى البطاح .

فما العمل ؟ وكيف السبيل للحصول من القافلة على الخمر والجيوب خاوية !!؟ أشار عليهم أبو لهب بغزال الذهب الذى كان أبوه عبد المطلب قد كشف عنه واستخرجه من بئر زمزم ، وأودعه الكعبة ـ مع أنه اعتبره ملكاً لأبيه ـ فأثارت تلك الإشارة مشاعر متضاربة لدى الشبّان الماجنين ، حسموها بانطلاقهم في ظلمة الليل وبَرْده إلى الكعبة ، وحمل أبو مسافع وأبو لهب على ظهريهما الحارث بن عامر بجانب الكعبة حتى ألقياه فوقها ، فضرب الحارِث الغزالَ الذهب ليسقط بجوار أبى لهب .

وحمل الثلاثة الغزال إلى دار ديك ودييك وكسروه ليقتسموه ، وكان النصيب الأكبر ـ بالطبع ـ لأبى لهب مدعى الوراثة ، فأخذ العنق والرأس والقرنين ،ودفع بقرطيْ الغزال إلى رفيقيه ناصحاً لهما أن يهباه للجاريتين أسماء وعشمة ، وباعوا عينى الغزال الياقوتيتين، واشتروا كل الخمر التى كانت لدى أصحاب القافلة ، ثم عادوا إلى دار مقيس ليواصلوا اللهو والشرب ، فأهدوا شنّفَ (١) الغزال وقرطيْها الجاريتين . وانقشع الليل ، ومرت بقريش أيام أُخر ، افتقد أهلها الغزال ، وكثر بينهم اللغط ، فمنهم من يتهم ، ومنهم من ينصح بالبحث فَوْراً عن المفقود أملاً فى اللحاق به ، وكفى ما ضاع من وقت .

وبينما كان العباس بن عبدالمطلب ـ وهو فى ريعان شبابه ـ يمرّ فى منعطفات قريش ، مرّ بدور بنى سهم ، فسمع أهلها يمجنون ويرفعون أصواتهم طالبين من الجارية أن تغنيهم شيئاً من شعر أبى مسافع .. ولما تهيأت للغناء

---

(١) الشّنْفُ: القرط ، وقد يُخَصّص الشّنْفُ بما يُعلّق فى أعلى الأذن، والقُرْطُ بما يعلق فى أسفلها .

أنشدت :

إن الغزال الذى كنتم وحليته تقنونه لخطوب الدهر والغير
طافت به عصبة من شر قومهم: أهل العلا والندى والبيت ذىالسُّتُرْ

وابتعد العباس وصوت الجارية يترامى صداه بالغناء إلى سمعه ، فيما كان يتردد بين جوانحه هاجس خفى ، تُرى هل يصدّق ما يتفّوه به هؤلاء المخمورون ؟! أم ترُي هم يكشفون فى غير وعيهم عماً أخفوه وهم فى كامل إدراكهم ؟ !

لقد أسرّ إلى أبى طالب والزبير وابن جدعان بما سمع ، فصحبوه حتى دنوا من دور اللهو ، فى حين كان يطلب أبو مسافع من الجارية أن تغنى ما أفصح عنه !

أَبْلِغْ بنى النضر أعلاها وأسفلها أن الغزال وبيت الله والركن
أمست قيان بنى سهم تُقسّمُه لم يغْلُ عند نداماهن فى الثمن

لم يحد الأربعة مندوحة عن اقتحام دار مقيس فلم يجدوه ، وكانت الجاريتان مازالتا تواصلان إنشاد بيْتَىْ أبى مسافع ، وكانت إحداهما تتزين بالقُرْط والآخرى مزينة بشنف الغزال ، فخافتا أن يقتلوهما ، فاعترفتا ، بمصدر زينتهما ، وأفشتا سرّ حادث السطو على الكعبة وسرقة غزال الذهب .

هنا كان موقف الجاريتين هو موقف شاهدَىِ الإثبات على سيدهما مقيس ، وعلى كل من سطا على مقتنيات الكعبة قبل الإسلام ، وتعدى

الأمر كوْن الجاريتين محّل ثقة سيدهما الماجن ، إلى اعتبارهما مصدراً لأخبار عرب الجاهلية .. حتى ولوكان فى ذلك إضرار بأقرب الناس إليهما ـ ولىّ نعمتهما ، إذ ليس بعد روحهما روح !! لذلك فإن الشعراء تلقفوا هذه الحادثة وسجلوها فى أبيات متناثرة .. ففضلاً عماً اعترف به ابن مسافع فى قوله :

دعاه إلى الشّنْفِ شنّفِ الغَزا ل حُـبٌّ بخصْـمانةٍ عيْطَلِ
لعْشـمةَ حـين تـراءتْ له وأسـماءُ عـاطلةُ أجْـمَلُ

فضلاً عن هذا لاعتراف ، أنشد أبو إهاب قائلاً ..

دارُ ابن جُدْعان مأوى كل باغية

فكيف يجمع فيها البرّ والحوب

الّبثْجَاء الحَضْرَميّة وهّر بنت يامين :

هاتان الجاريتان كانتا من النوع العام ، ولو كان فى عصرهما النظام الاشتراكى ، لكانتا فى مقدمة هذا النظام ، ولأنشئت من أجلهما إدارة عموم الجوارى .. فلم يكن لهما ولىٌّ بعينه ، وإنما الكل لهما سادة .. لذلك فإنهما كانتاعلى رأس الموتورات المضارّات من ظهور الإسلام .. ربما لتحريم حِرفتهما غير المشروعة ، أو تضييق الخناق على إباحيتهما مورد رزقهما !!

ذلك لأنهما ـ عند وفاة النبى ﷺ ـ وهما تقيمان فى حضرموت ، لم تستطيعا كتمان فرحتهما ، ففضحتا خسّة مشاعرهما ، إذ توهّمتا مع الشامتين أن دين الله انتهى بوفاة الرسول ﷺ ، وقوّى من هذا الفهم الخاطئ لديهما ارتداد بعض الداخلين فى الإسلام حديثاً أو عن غير إيمان ، فرفعتا عقيرتيهما

ومزماريهما بالغناء ، والابتهاج بدق الدفوف .

لكن نصر الله لم يمهلهما .. إذ طارد المهاجرُ بن أبى أمية الذى نصبه أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، قائداً لجيش المسلمين ـ طارد فلول المرتدّين حتى استسلموا وقبلوا تأدية الزكاة صاغرين .

فكان عقاب الجاريتين الشامتتين سريعاً ، إذ أمر المهاجر بقطع أيديهما ونزع ثَنِيَّتَيْهِما .

وسواء لقى هذا العقاب الزاجر الباتر قبولاً من أول الخلفاء الراشدين ، أم أنه قوبل منه بالرفض لشدته وقسوته . فهو كما قال « مأثم ومنفرة إلاّ فى قصاص» . فإنه عقاب صارم كان له وقع الصاعقة على ثبجاء وهرّ اليهودية وغيرهما ، وصار نقطة تحوّل فى الضرب على أيدى الجوارى اللائى من هذا النوع اللا أخلاقى الذى ليس أهلاً للتمتع بالثقة !!.

جميلة وعزّة الميلاء :

إذا كان لابدّ من الالتزام بالترتيب الزمنى ، فإنه من الأوْجب تقديم عزة على جميلة .. فهى أسبق منها فى دنيا الجوارى ، لكنهما متعاصرتان فى الموضع الواحد .. ألا وهو أرض الحجاز .

وهما فى مرحلة مابين أوائل الدولة الأموية وما قبلها بسنوات معدودات . ومع ذلك قدّمت جميلة على عزّة .. لتميّزها بعدة صفات :

أولها : خلّة الهيمنة على مجالس غنائها بشخصية مبهرة مسيطرة، فى حين كانت عزّة متأصلة فيها تبعية الجوارى لقائدها أو سيّدها ، ومن ثم فإن روح المنافسة بينهما لم يكن لها من أثر .

ثانيها : إجادة جميلة لفن الدعاية أو الإعلام ، فكل مجالس اللهو والغناء تعقدها فى دارها المزدانة دائماً ، والعامرة بما لذّ وطاب من مغريات المرح ، ومشهّياته ، ومن ثم كان يقصدها عِلْيَة القوم ولاتذهب هى إليهم .

ثالثها : اقتناؤها خمسين من الجوارى ، تشرف بنفسها على زينة كل واحدة منهن ، وتُعلمهن العَزْفَ على العود ، حتى يصاحبنها بهالة من أصداء الغناء وترديده .

فلاعجب أن ازدادت أبعاد القاصدين إليها ترامياً من الشام وما بين النهرين . ولا عجب أن تنضم عزّة نفسها إلى زمرة صويحبات جميلة . فتصبح دارها قبلة مجتمعات الحجاز وما بعدها شمالا وجنوباً .

رابعها : ربما يمكن إضافة ميزة الصبا إلى جميلة لتزيدها بهجة ، وتزداد بامتشاق قوامها خيلاء. على نقيض عزّة التى زاد وَزنها ، ولم يعد تمايلها فى مشيتها مغرياً كما كان من قبل فى شبابها .

لذلك يمكننا القول : إن دار جميلة ذات الخمسين جارية ، صارت هى سيدة الجوارى ولا سيّد غيرها !! بل لاأكون مغالياً إن قلت إن نزلاء دارها من نجوم هذه المجتمعات لم يكن لهم من إرادة إلاإرادة الاستحسان ، والانصراف حالما تشير لهم بذلك .

أمّا عزّة فلم يكن يعوقها تمايلها عن التوجّه إلى بيوت كل من يدعوها إلى الغناء لديه .

خامسها : وإذا أضفنا إلى جميلة موهبة التذوق لقصائد الشعر ونقدها ، ما عجبنا من التفاف شعراء هذه الحقبة حولها ، فكان على رأسهم حسّان بن

ثابت حتى بعد أن كُفّ بصره فى كهولته ، وكذلك العرجى والأحوص وابن سريج .

أمّا عزة فقد انفردت بميزة نبعت من أقدميتها .. ألاوهى خبرتها ببنات جنسها من النساء ، و اكتساب ثقة شبان المدينة طالبى الزواج ، ومن أمثلة ذلك واقعة سجّلتها كتب التراث : إذ جاءها ذات يوم مصعب بن الزبير ، وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر ، وسعيد بن العاص.. والثلاثة من أحفاد الخلفاء والصحابة .. طلبوا من عّزة رأيها فيمن خطبوهن : عائشة بنت طلحة لمصعب ، وأم القاسم بنت زكريا بن طلحة لابن أبى بكر ، وعائشة بنت عثمان لابن العاص .

كلهن من ذوات الحسب الرفيع ، وكان يكفى أن يتوجة كُلٌ من الخاطبين إلى بيت كلّ منهن للفوز بموافقة ذويهن .

لكنه نزق الشباب الذى يغلّب ثقته فى جارية على ثقته فى أهله وذويه ، لذلك لم يكن لعزّةَ الجارية الا أن ترحب بتلبية رغبات قاصديها إرضاء لغرورها الكامن، وإبقاء على آخر شيء يميّزها عن صاحبتها جميلة . ألا وهو ثقة الشبان فى صدق أحكامها .

توجهت عزّة بصحبة جارية لها إلى عائشة بنت طلحة ، فقالت لها: «يتذاكر القوم بجمال النساء وخُلقهن ، وأنت منهن ، فلم أدركيف أصفك!! هيا اخلعى ثوبك فدتْك نفسى!» فاستجابت لها عائشة وأقبلت عليها ورجعت، فارتج كل شيء فيها ، واستعادت ثوبها منها وهى تعقب : «لقد قضيت لك ياعزة حاجتك ، وبقيت حاجتى» وسألتها عّزة بلهفة عماّ هى هذه الحاجة ، فأجابت :

« أن تُغنّينى صوتاً » ، فانطلق صوتها بغناء من أشعارجميل حتى وصلت إلى .

وأحْسَنُ خَلْق الله جيداً ومُقْلَةً تَشبَّه فى النسوان بالشادن الطفل[1]

فنهضت عائشة منتشية ، وقبّلتْ عزة بين عينيْها ، ثم منحتها أثواباً وجواهر .

ومثلما سلكت الجارية الخبيرة مع عائشة ، فعلت مع أم القاسم وعائشة بنت عثمان ، ثم عادت إلى الخطاب الثلاثة المنتظرين خارج المدينة ، تدلى لكل منهم بما رأته عينها الفاحصة ، ومزيدة عليها خبرتها بالنساء ، فقالت لمصعب في وصفها : «أماعائشة فلا والله ما رأيت مثلها مقبلة مدبرة ، محطوطة المْتنين ، عظيمة العجيزة،ممتلئة الترائب ، نقيّة الثغر وصفحة الوجه ، فَرْعاءَ الشعر ، لفاَّء الفخذين ، ممتلئة الصدر ، خميصة البطن ، ضخمة السّرّة، مسرْولة الساقين ، يرتج مابين أعلاها إلى قدميها» ، ثم أردفت ناقدة :

« وفيها عيْبان ، أمّا أحدهما فكبيرة الأذن ويواريها الخمار ، وأما الآخر فكبيرة القدم ويواريه الخفّ . »

ثم التفتت إلى ابن الصدّيق لتقرر أن أم القاسم : « ما رأيت لها من مثيل ، كأنها خوط بان يتثنى ، ولو شئت أن تعقد أطرافها لفعلت !! ولكنها ضيّقَة الصدر وأنت عريض الصدر ، فإذا كان ذلك كان قبيحاً ، لايعود الآن كذلك إذا ما ملأ كل شيء مثله . »

ثم قالت لسعيد بن العاص : « وأما أنت يابن العاص فإنى والله مارأيت مثل خَلْق عائشة بنت عثمان لامرأة قط ، ليس فيها عيب ! و الله لكأنما أفرغت إفراغاً ، ولكن فى الوجه ما يصدّك عنها مع جماله ، وإن استشرتنى

(١) المُقْلَة : العين .. والشادن : ولد الظبية .

أشرت عليك بوجه تستأنس به . »

إن عزّة ـ وقد أبرأت ذمتها بهذه الشهادة ـ لم يكن دورها مجردَ دور خاطبة ، وإنما هى مؤدية لمهمة دقيقة على الوجه الأكمل، حتى تبصر لهم بعيونهم ، وتعدّل من أذواقهم ، ببذل النصح لهم .. وكان ذلك منتهى الثقة بنفسها وثقتهم هم فيها ، فمع مصارحتهم بنقد عيوب كل عروس على حدة، كانت أيضاً أمينة فى إبراز محاسن كل منهن ، لذلك فإن كل خاطب أتم الزواج بمن اختار وهو على بيّنة بها على نور .

فإذا كان لمثل هذا النوع من الثقة منَ ثمِن ، فهو استمرار الارتباط بها كمدرسة لإدخال السرور والبهجة على نفوس الجميع ، وإن كان للثقة نفسها من مصدر .. فهو هذا اللهو والطرب .

فإذا ما بحثنا عن مصدر الالتفاف حول الجارية الزعيمة «جميلة » . هل هو متمثل فى جمالها ؟ يجوز ، ولكنه عندئذ يكون مجرد إعجاب مايلبث أن يخبو عندما يذوى جمالها . أم ترى هو حلاوة صوتها وحداثة غنائها عن عزّة؟ ربما ، ولكن استحسان عذوبة الصوت يسرى عليه ما تفرضه الأحبال الصوتية من امتداد أو ارتخاء .. وهذا لم يتفق وما كان لجميلة من أيام دائمة دافئة عُرفت بها .. فقد كان حرصها على التجدد فى أداء الأصوات حافزاً لمجتمعات المستمعين إلى تجديد الالتفاف حولها ، والثقة بها أيضاً .. إذ أنها نهجت فى تقسيمها لأيام مجالسها الغنائية نهجاً نقدياً . وهذا النهج النقدى شمل الشعراء والمغنين على السواء ، فصنفتهم إلى طبقتين :

الأولى : ذات الصدارة فى اليوم الأول ، والثانية : تليها فى اليوم التالى ،

واليوم الثالث تخصصه للجوارى والمغنّيات

وكانت تدعو للاستماع أشراف مكة والمدينة وشعراءهما ، ولقد أبرزت كتب الأغانى ونهاية الأرب والعقد الفريد صوراً من هذه الأيام التى خلدت على مدار الأيام والقرون .

ومن أشعار عمر بن أبى ربيعة غنت فى حضوره الجوارى العازفات :

إن أنسَ لا أنس يوم الخيْف موقفها ... وموقفى ، وكلانا ثمّ ذو شجن
وقولها للثريا وهْى باكية ... والدمع منها على الخدّين ذو سَنَنَ[1]
باللـه قولى لـه فى غير معْتبة ... ماذا أردت بطول المكث فى اليمن؟
إن كنت حاولت دنيا أوْ نعمْتَ بها ... فما أصبت بترك الحج من ثمن

لقد كان هذا اليوم الأول بعد عودة جميلة من مكة حاجّة ، وبصحبتها أشراف مكة ، وكان ابن أبى ربيعة على رأسهم ، الذى لم يتمالك نفسه من البكاء حتى بلل الدمع لحيته وثيابه أمام مضيفته المدينية وسائر ضيوفها الأشراف القادمين من مكة ، وكذلك أمام جواريها الحظايا، ومالت عليه جميلة هامسة بكلماتها العذبة التى لم يلتقطها إلاّه ، فعاد إلى وقاره متماسكا أمام الجموع ، أما هى فأخذت تشير بأناملها مشفوعة بتعليمات يغلّفها الرجاء الرقيق .. فما كان ينقصها إلاّ عصا قائد الفرق الموسيقية الحديثة وهى تشير على ابن سُرَيْج أن يغنى أيضاً لعُمر هذه الأبيات :

أليست بالتى قالت ... لمولاة لها ظهرا
أشيرى بالسلام له ... إذا هو نحونا نظرا

---

(١) الثريا : مجموعة من النجوم فى صورة الثور ، وكلمة النجم عَلَمٌ عليها .

لقـد أرسلـتُ جـاريتى   وقلت لها خُـذى حـذَرا
وقـولى فـى ملاطفـة   لـزينب نَـوِّلى عُـمرَا
فهـزّت رأسـها عجباً   وقـالـت مـن بذا أمـرا
أهـذا سحـركَ النَّسَـوا   ن، قـد خـبرنـنى الخبـرا

ولم تعط أُذنها لابن ربيعة هذه المرة ، وهو يدهش ممن تجّرأ على نسبة هذه الأبيات له ، وواصلت إعطاء إشاراتها لابن مسجح لكي يغنى ، ولمّا فرغ أشارت لمعبد ليشرع فى غناء أشعار لمعن بن أوس ، و انتهى هذا ليغنى ابن محرز من بعده غناءً مقبضاً ، حتى إذا ما وصل إلى بيت ينوح فيه :

هـو المـوت لـوْلا أن للمـوت مّـدة
مـتى يلـق لومـاً فارغـاً فهـو فاعلِـه .

غضبت مشيرة إليه بالتوقف ، فكيف يتغنى هذا المغنّى غير اللبيب بالموت فى مجلس أنس ؟! ولم تتح له فرصة توضيح سبب مواساته لمعبد الذى لامس سنّ الكهولة ، واقترحت جميلة على الغريض أن يمحو فوراً آثارهذا النعيب بغناء سعيد ، لكن الغريض لم يكن على مستوى حُسن ظنها، إذ أنشد من أبيات عمرو بن شأس ما كان يندم به على شبابه الذى ولىّ ، وما صاحب شيخوخته من صمم ، وما دفع ذلك إلى ظلم جميلة له بتأخيره فى ترتيب المغنين .

هنا لم تُخْفِ جميلة صدق مشاعرها ،وحسم قرارها بهذا الترتيب مُعلقَة : « أحْسَن عَمْرو ولم تُحسن أنت الغناء » ثم أشارت لمن بعده ليستأنف الإنشاد .

لم تكتف جميلة يومها بالغناء الفردى ، بل زادات عليه بغناء جماعى ، الثنائى منه لنافع وبذيح ، والثلاثى منه للهُذَليين الثلاثة الذين غنوا فى صوت واحد أبياتا لعنترة . ولم تشأ إلاّ أن تختتم يومها الأول مثلما بدأته بصوتها ومعبد، فأشارت إلى مالك بن أبى السمح لكى تغنى موضحة ذلك بقولها : «إنك عندى ومعبداً لصاحباً طريقة واحدة لا ينكر فضلها أحد » .

يجوز أن يكون ذلك منها تطييبَ خاطر لأبى السمح بعد أن تحشرج صوته فى كهولته ، كما يجوز أن تكون حنكتها فى إدارة مجالس الغناء هى التى تجعلها ممسكة بزمام الأمور بمثل هذا التقييم المستتر، فلاعجب أن يندفع المغنى رافعاً عقيرته بالغناء :

عَدُوٌّ لمن عادَتْ ، وسلم لسلمها ... ومن قربت سلمى أُحبٌ وقُرّبا
هبينى امْرأً إمـاً بريئا ظلمتـه ... وإمّـاً مسيئـاً تـاب منـه وأعتبـاَ
أقول التماس العُـذْر لمـاّ ظلمتنى ... وحـملتنى ذنباً وماكنت مـذنبا .

ثم نجد جميلة تُتبع اليوم الأول بالثانى ، فتخصصه للطبقة الثانية من المغنّين والمغنيّات ، وتبـارى فى الإجـادة طويس ودلال ، وبرد الفـؤاد ونومـة الضحى ، وفند ورحمة وهبة الله ، وتختم مبارياتهم الغنائية بصوتها ليكون مسك الختام فتغنّى أبياتا للأعشى :

بانتْ سُعادُ وأمسَى حبلها انقطعا ... واحـلّت الغـوْر فالحَدين فـالفرعا
تقول بِنْتى وقد أصبحت مرتحلاً ... يارب جنب أبى الأوْصَاب والوجـعاَ
وكـان شئ إلى شئ فَغَيَّــرَهُ ... دَهْرٌ مُلِـحُّ عـلى تفـريق ماجمعا

وينفض المجلس إلاّ من الخاصة بين صيحات الاستحسان وآهات اللوعة

حتى إذا ما أهل اليوم الثالث أهّلت جميلة بجواريها ، لإحيائه وحدهن أمام الأشراف والشعراء ، ولكن من وراء ستار !!ومن ثم يستمع الحضور إلى فنون الشعر المغنّى بضروب الألحان ومختلف الأصوات المصحوبة بالأعواد الخمسين، وتفتتح جميلة المجلس بغنائها شعر كُثيِّر الذى يقطر كله عشقاً ودفئاً ، مما يشكل مع تنهيدات المستمعين ودموعهم نسقاً من التجاذب الذى لا يمنعه من الالتحام إلا الستار الرقيق ، فتتمايل الرءوس والأكتاف مع اهتزازات الأوْتار وأصداء الترددات ،فترتجّ الدّار رجّاً .. حتى إذا ما أفسحت الجوارى لمقعد عزّة الميلاء تتقدمهن لتتهيأ للغناء ، أشارت لهن جميلة بالتصفيق ، فصفّقن طويلا لا يكففْن إلاّ عندما ينطلق صوتها بأنشودة عمر بن أبى ربيعة :

تذكّرت هنداً وأعصارها ولم تقصن نفسُك أوطارَها
تذكّرتِ النفسُ ما قد مضىَ وهاجَتْ على العين عُوّارها
لتمنح رامة مناً الهوى وترعى لرامة أسرارها
إذا لم تزرها حذار العداَ حسدنا على الزّوْر زُوارها

ولمّا فرغت من الغناء ، علا التصفيق من خلف الستار ومن أمامها ، الأمر الذى لم يسع جميلة إلاّ أن تهنئها قائلة :

« ياعزّ !! إنك لباقية على الدهر ، فهنئياً لك حُسْن هذا الصوت مع جودة الغناء » .

وتتالت الجوارى : حبابة ، وسلاّمة القس ، وخليْده المكية ، وثنائى عقيلة الشماسية ، وثلاثى فرعة، وبلبلة ، ولذّة العيش .

لعمـرى لئـن كـان الفـؤاد مـن الهـوى

أخـا سـقـم إنـىّ إذن لسـعـيـد

علىّ دمـاء الْبـدْنِ إن كـان حـبّـهـا

عـلى النـأى فى طول الزمان يريم؟؟

ثم أشارت لجواريها جمعيهن أن يغّنين معاً أنشودة الأعشى : «بانت سعاد» وانقضى اليوم الثالث من أيام جميلة لتعاود إحياء الأيام كل أسبوع ، فصار ولع الجميع بأحلام حققتها لهم يزداد كلما حلت تلك الأيام .

* * *



العَصْرُ الأُمَـوِىُّ

صورة للمجتمع الأموى عامة وفى الشام على وجه الخصوص :

لو قصرنا الكلام على ما جرى فى الشام من تغيرات اجتماعية وتطورات نتجت عن دخول غالبية أهلها في الإسلام ، لما وجدنا أمراً ذا بال لافت للنظر .. لقصر الحقبة الزمنية التى جاءت بها الحضارة الإسلامية إلى أرض الشام ، ولوجود ما يشبه بالعازل النفسى الجماعى بين أسرة الخلافة الأموية من ناحية ، وبين كل من أهل الشام أنفسهم وأهل الإشعاع الفكرى فى بقية أنحاء الدولة الأموية من ناحية أخرى .

فأهل الشام عاشوا فى ظل حكم الإمبراطورية الرومانية سنين أطول مما قضوها مؤخراً تحت حكم الأمويين ، ومن ثم فلم يزل بعد تأثرهم بالنظم الاجتماعية الرومانية سائداً . وإذا ما تصوّرنا ما عليه الشام من طبيعة ذات مناظر خلابة ، وأجواء موحية حانية ، وإذا ما تذكرنا خلو الشام فى العصر الأموى من محور الإبداع العربى وهو الشعر فى تلك الآونة ـ حق لنا أن نتساءل:ماسر هذا النضوب الفكرى أوالجفاف الإبداعى فى الفنون والأدب عامة والشعر خاصة، هل هو انفضاض الأهل عن الأسرة الحاكمة ، فلا أثر لشعراء مدّاحين من الشوام يشار إليهم بالبنان، ولا أثر لشعر الغزل والنسيب الذى يدفع بمردّديه من البشر إلى التغنّى به ، وبالتالى يضع بذور فن الغناء فى تربة صالحة للرخاء والخصب الفنى ، يجوز أن يكون مرجع ذلك إلى أسبقية وجود القبائل اليمنيه على قبائل قيس التى جاءت الشام مع الفتوح ـ كما قال أستاذنا الدكتور شوقى ضيف ـ ولكن ألم يكن من أهل الشام أنفسهم من انطبعت نفسه

بمظاهر تلك الطبيعة الجميلة هناك ، لنجد شعراء مغنين ذوى أُرومَة شامية ، حتى ولو لم يقولوا شعراً بالعربية ، أفلم يكن من إبداع فنّى باللغة التى كانت سائدة كاليونانية أو اللاتينية أو السريانية !!؟

على أية حال فإن مايهمنا هو أن أشعار الصناجة العرب ، لم يكن للشام إلاّ قدر ضئيل منها ، ولم يكن من فضل للأسرة الأموية الحاكمة – بعد أن دانت لها الأمور – إلا اجتذاب الشعراء من الحجاز وأرض الجزيرة وخراسان إلى أعتابهم ، للمدح وأخذ عطاء المدح ثم العودة إلى بلادهم التى قدموا منها ، كما صار لهم فضل ريادة قول الشعر لدى الخلفاء أنفسهم ، فوجدنا خلفاء أمويين يبدعون الشعر ، ويعقدون مجالس للمغنين والمغنيات ينشدون لهم ما أبدعته قرائحهم، وكان على رأس أولئك الخلفاء الشعراء يزيد بن معاوية ويزيد ابن عبد الملك ، وابنه الوليد ، مما شجع شعراء آخرين على المجيء من مكة والمدينة كعمر بن أبى ربيعة والأَحْوَص .

وأصبح بإمكاننا الاستعانة بصورة مجتمع الرفاهة والنعيم فى الحجاز ، لنعثر على وجه آخر مشابه لتلك الصورة فى الشام ، ولكن فى وقت متأخر نوعاً ما .. أى بعد حملة يزيد بن معاوية على المدينة فى موقعة الحرَّة سنه٦٣هـ واكتفاء أهل المدينه ومكة بحياة الصفو والرخاء يستوى فيها عامتهم وخاصتهم وعبّادهم وزُهادهم وقضاتهم ، حتى لتؤثر عن عمر بن عبد العزيز أصوات تغنَّى بها فى إمارته لهم .

كما تخرّجَ من دار عبد الله بن جعفر ـ أحد أشراف المدينة ـ كثيرون من المغنين ، و المغنيات المطربات، وهو الذى قصد داره أهل المدينة ليسمعوا

بها ألوان الغناء العفيف و المتقن .

وكان في مقدمة مغنّي العصر الأموى فى المدينة ومكة : طُوَيْس ، و هو أول من صنع الهزَج و الرَّمَل من ألحان الغناء في الإسلام ، و يونس الكاتب ، الذى يُنسب إليه أول كتاب في الغناء و الأغانى و نسبتها إلى أصحابها ، ومَعْبد ، نجم الغناء العربى بلا منازع . كما كان من أشهر مغنيات تلك المرحلة عزَّة الميلاء ، وجميلة ، وسلاَّمة القَسّ ، وحبابة ، وسلاَّمة الزرقاء، وسميّة في مكة ، وبَغوم وأسماء مولاتا عمر بن أبى ربيعة . كما لا ننسى ابن مسْجح ، وهو على مستوى طويس و يزيد عليه أنه « نقل غناء الفُرس إلى غناء العرب ، ثم رحل إلى الشام وأخذ ألحان الروم والبَربطية ، وتعلّم الضرب ، ثم قدم إلى الحجاز وقد أخذ محاسن تلك النغم ، وألقى منها ما غناء العرب ، وغنّى على هذا المذهب ، فكان أول من أثبت ذلك و لحّنه وتبعه الناس بعد . » و ممن تبعه في هذا المضمار ابن سُرَيج الذى ضرب على العود الفارسى بالغناء العربى ، وابن محرز ، والهُذَلى ، والغريض ، الذى ضرب به المثل على الندب و النياحة .

لكن ـ والحق يقال ـ إنه برغم حياة الرغد والهناء والغناء التى عاشها أهل المدينتين ، وعلى الرغم من اتسام شعر الغزل الغنائى بالصراحة وتغلُّب الطابع المادى عليه ، فإن هذا الشعر خلا من الإفحاس والتزم بقدر من الاحتشام بسبب وجود شعراء من الفقهاء والزهاد ، من أمثال عروة ابن أُذيْنة، وعبد الله بن عتبة ، وعبد الرحمن الجشمى .. فامتازت أشعارهم بالنقاء

والطهارة وسمو العاطفة ، مما اضطر شاعراً آخر مثل عمر بن أبى ربيعة إلى عدم الإيغال فى الصراحة الغزلية، ولايشذ عن هذا القول غير الأحوص. فحين يقول ابن أبى ربيعة ـ وقد بّرحَ به الشوق :

ماكنت أشـعر إلآمـذعرفعتكُم　　أن المضاجع تُمسى تنبـت الإبرا
قد لُمْت قلبى وأعيانى بواحدة　　فقال لى : لا تلُمْنى وادفع القدرا .

يقول الأحوص بصراحة أكثر ..

تعـرّض سلمـاك لما حـرمـتَ　　وضـل ضلالك مـن مُحـرْم
تـريـد بـه البـرّ يا لـيتـه　　كفـافـاً مـن البـرّ والمـأثـمَ

ويكاد أن يصيح بأعلى صوته معلناً :

إذا أنـت لـم تعشـقْ ولـم تـدْرِ مـا الهـوى
فكُـنْ حجـراً مـن يابس الصخر جلمدا

وسواء كان شعر الغزل صريحاً أو رامزاً فالرابح فى هذا وذاك فن الغناء الذى وجد فى هذا التبابين حقلاً خصباً للنمو ، ولكلّ جانب من جانبيه عشاق من السامعين فمن يستطرب الحياء يتغنى ويستمتع بالرامز من شعر الغزل، ومن يتلذذ بالمكاشفة يتحسس ضالته فى صريح الغزل .

ولذلك فإننا نستوثق من هذه التأثيرات الحجازية فى الشام بما أبدعه يراع الخلفاء الأمويين وفى مقدمتهم الوليد بن يزيد ، والذى ينسب إليه أنه أول من أدخل وزن المجتث فى الشعر ليناسب الغناء ، وله أصوات صنعها مشهورة ،

بل كـان يضـرب بالعـود ويوقع بالطبل ويمشى بالدف على مـذهب أهل الحجاز.

ومما غنتّه له المغنيات ما قاله حين توفى عمه هشام :

إنـى سمـعـت بـلـيـل ورا المـصـلّى بـرنّـه
إذا بـنـات هـشـام يـنـدبـن والـدهُـنّـه
يـنـدبـن قَـرْمـا جـليلاً قـدكـان يـعـضـدهنّـه

وتكاد الأذن الطروب تسـمـعـه وهو يحفّظ جاريته لحنه وشـعـره مـن هذه الخمرية :

اصْدَعْ نجىّ الهموم بالطّرب وانعم على الدهر بابْنَة العنب
وَاسْتقبل العَيْشَ فى غضارته لاتقـفُ مـنه آثار مُعْتـقـب
مـن قهـوة زانـهـا تـقـادُمُها فهْىَ عجوزٌ تعلو على الحقب
أشهى إلى الشّرْب يوم جلوْتها مـن الفـتاة الكريمـة النسب
فقد تجلّت ورقّ جوهـرهـا حتى تبدّت فى منظر عجـب
فهْىَ بغيرْ المـزاج من شـررٍ وهْىَ لدى المزج سائلُ الذّهب
كـأنّها فى زجاجـهـا قبـس تذكو ضياءً فى عينْ مُرتقـب

ولا شك أن تكون مثل هذه القصائد الخمرية منها والغزلية ، مقدمة هادية وموحية لأبى نواس بالعصر العباسى فيما بعد .. حيث خطا الغناء والطرب بشتى أنواع التأييد والتشجيع ، فبلغ من النضج قمة لا يمكن إنكاره .

فى العصر الآموى ..

حَبَابَــــة

حَبَّابة واحدة من الجوارى اللائى حباهن الله نعمة الحُسْن فى الوجه والقد ، وحلاوة الصوت فى الشْدو والهمس . وهى نعمة كانت تكفى وحدها لإفساح الطريق أمامها إلى المجد ، فتدخل قصور الأشراف دون طَرْق أو انتظار ، وتتمرغ على فرش من حرير تغبطها عليه الحرائر ، وتقبض بيديها البضّتين على زمام الأمور بلا أدنى اعتراض أو صدّ .

لكن طموح حبابة غلّب طبيعة الأنثى على طبيعة الأمومة فيها ، فانساقت ترتوى من أكثر من إناء ، وقنعت بقدْر الحظية، فلم ترْق إلى مرتبة الزوجة التى تنجب أبناء يرثون ويعتلون سنام الأمور .

فقد افتتن بها الأمير يزيد بن عبد الملك ، ولم يقدر على فراقها عندما جاء إلى المدينة زائراً ، فاشتراها وعاد بصحبتها إلى دمشق ، لكنّ أخاه سليمان أمير المؤمنين وقت ذاك أبى عليه ذلك ، وأمره بطردها وإلاحجرَ عليه ، الأمر الذى اضطر يزيد أن يقبل صاغراً ، فباعها والألم يعتصر قلبه ، وزاد حزنه حزناً عندما طرق سمعه صوتها وهى تنشد وتجرّ قدَميها من حيّ مخيص :

سلكوا بطن مخيص[1] ثم ولّوا راجعينا
أورثونى حين ولّوا طُولَ حزنٍ وأنينا

فأضمر يزيد فى نفسه شيئا ، ولم يطل به الأمر طويلا ، إذ لفظ أخوه الخليفة أنفاسه الأخيرة ، وتولى هو الخلافة .

---

١ ـ بطن مخيص : اسم مكان

وكان أول عمل قام به هو استعادة حبابة إلى قصره ، وجارية أخرى هي سلاّمة . وتشاء الأقدار أن يملأ ساحة الشعر قصائد الأحوص ، التى كانت حبابة تتغنى بها ، وكان لها فضل إغراق يزيد في حبّها ، وطرح زوجته سعدة بنت عبد الله جانباً ، حتى أمور الخلافة وشئون الرعية لم يكونا ليشغلاه بقدر انهماكه في شئون جاريته الحسناء ومصالحها . فقد كان أوَل عفْو أصدره ، هو عن الأحْوَص الذى كان نزيل السجن في عهدى الخليفتين الرّاحليْن سليمان بن عبد الملك ، و عمر بن عبد العزيز . ومن الطبيعى أن يملأ الفراغ. الذى تركه يزيد في إدارة دفة الحكم، فرد يتمتع بقدر من الذكاء والطموح ، ولابدّ لمن يقفز إلى هذا الفراغ لكى يملأه ، أن يكون خبيراً بجوانب شخصية الخليفة اللاّهى أو بلغة أوضح ـ يجيد السباحة في هذا البحرالواسع حتى يضمن الوصول إلى الجانب الآخر في آخر الشوط .. والجانب الآخر كما نلمس هو قلب يزيد ، هذا القلب الذى ملأته حبابة بكل مواهبها وجوارحها ، فلم تدع لزوجته فيه نصيباً ..

وانطلقت حبابة تُعيِّنُ الولاة : كعمر بن هبيرة على العراق ، وتعزل الولاة كمسلمة بن عبد الملك . ولم تَنِ عن إرواء يزيد بجرعات من بلسم حبّها في كئُوس من أبيات الأحوص ، فتغنى له منها همساً وجَهْراً :

ألا لا تلمه اليوم أن يَتبَلّدَا

فقد غلب المحزون أنْ يَتَجَلّدَا

بكيت الصّبا جهدى فمن شاء لا مَني

ومنَ شاء آسىَ في البُكاء وأسعَدا

وإنىّ وإن فـنـدتُ فـى طلَـب الصـبا

لأعْـلَم أنّى لسـتُ فى الحـب أوْحَدا

إذا أُنتَ لم تعشق ولم تَـدْرِ ما الهـوَى

فَكُنْ حَجَراً مِنْ يابسِ الصَّـخْرِ جَلْمَدا

فمـا العـيـشُ إلاَّمـا تَـلَـذ وتشتهى

وإنْ لامَ فـيــه ذُو الشّنـــان وفَنّـــدا

فلا عجب أن وجدنا يزَيد قد أصمّ أذنيه عن أى نداء آخر غير غنائيات حبابة وأشعار الأحوص ، حتى ولو كان النداء نداء الأذان ليؤم المصلين فى الجامع الكبير .. فأناب عنه من يقوم بهذا العمل الشاق !!

ورُبّ سائل يتساءل : أما كان هناك تنافُس بين حبابة وسلاّمة للتسلّط على قلب يزيد ومقـدّراته ؟ إن من يتـابع خطوات الجـاريتـين فى ردهات قصره، يجد أن قدمى حبابة لم تحودا عن طريق يزيد أينما ذهب ، مهما بلغت درجة تعبها أو احتاجت إلى فترة راحة واسترخاء ، حتى إن يزيد عندما أراد أن يجمعهما لينعم بصوتيهما معاً ، وأشعل غيرتهما بقوله : « أيتكما غنّتنى ما فى نفسى فلها ماتطلب ، فانبرت سلامة للغناء :

علاقة حَبّ لجّ فى سـنن الصـبا   فأبـلى ،ومـا يزداد إلاّ تجدّدا

ولوكان بذل الجـود والمال مُخْلداً   من الناس إنساناً لكنت المخلّدا .

لكنها لم تصب ما فى نفس يزيد . ثم غنتّ حبابة بيتين من أشعار ابن قيس الرقيات :

خــلقٌ مــن بني كنانــة حــولي بفلسطين يسرعون الركوبا
هَــزِئَــتْ أنْ رأتْ مشيبــاً برأسي لا تلــومي ذوائبي أنْ تشيبَا

ومهما قيل في قيمة هذين البيتين العاديين ، فإنهما مَسّا ما يعتمل في قلب يزيد من لواعج ، لأن قائلتهما هي أنيسة قلبه وكفى ، فانتشى وسألها : « ما تطلبين يا حبابة ؟ »

وهنا نلمح أقصى طموحات حبابة الجارية ، وحبابة المرأة المنتصرة ، فلم تطلب إلاّ أ ن : « تهبني سلاّمة » !!! ومع دهشة المفاجأة التى ألجمت سلامة وإصرار حبابة ، أجابها الخليفة المتيم: « هى ومالها لك »

فزعت سلامة لما جرى ، فلم يكن يخطر لها على بال في يوم من الأيام أن تمتلكها زميلتها فى العمل وفى التبعية !! عاتبتها لائمة ، ولم يكن أحد يصدّق أن ما فعلته حبابة كان من قبيل الدعابة لصديقتها ، لذلك فإن سلاّمة رفضت هذة الحيلة منها لمداعبتها .. فمسائل البيع والشراء عامة ـ وفى الجوارى خاصة ـ كانت تكفى لها كلمة الشرف !! فلا هزل فيها ولا تراجع

وحقيقة الأمر أن حبابة التى أغرقت نفسها فى اللهو ، لم تكن تعى معنى امتلاكها لواحدة من زميلاتها الجوارى ، حتى لو كانت هذه الواحدة هى سلاّمة معلّمتها فى الغناء والعزف . لقد كان كل همّها أن تتأكد من شيء واحد ، هو مدى حصارها للخليفة اللاهى يزيد نفسه ، ومدى سريان كلمتها عليه فى أهمّ خصوصياته ـ ألا وهى إحدى جواريه الحظايا إلى قلبه والتنازل عنها ، لأنها لم تمارس على سلاّمة حق الولاية ، ولم تشعرها بأى

تغيّر في تزاملهما ، أو في وسعيهما في الدفاع عن منطقة نفوذهما عند يزيد، لذلك فقد بقي الحال على ما هو عليه ، حتى حلّ اليوم الذى لا مفرّ منه لكل حيّ .

كان موتها على أهون سبب ، مثلما كانت حياتها اللاهية واهية، إذْ شَرِقَتْ بحبَّةِ رُمَّانة كانت تزدردها مع مولاها الخليفة في دار شؤم بأطراف دمشق ، فماتت بين يدى يزيد الذى أذهلته المفاجأة ، وظل مقيماً بجوار جسدها يستطيب رائحته المقبضة ، ولم يفرّط في دفنها ـ بعد إفاقته من هول المصاب ـ إلاّ بعد طَوفَانٍ من اللوم والتحذير حاصره القوم به . لكنه ظل على جزعه وذهوله ، يبكيها تارة ، وينشغل عنها بجارية يلقونها في طريقه تارة أخرى ، حتى يملّها فيطردها .

مما جعل القوم يشكون في سلامة عقله ، لكنه أراحهم من شكوكهم بغيبوبة اكتئاب أسلمته للموت بعد أيام معدودات من موت حبابة ، ودفنوه ـ تنفيذاً لما أوصى به ـ بجوار قبرها .

ولا ندرى إن كانت هذه العلاقة تدخل في عداد قصص العشق غير العفيف، أم هي من قبيل الثقة الزائدة في جارية طمحت إلى أن تقلب الأوضاع ،وتجعل من الخليفة ولياً لعهدها ، أم هي في حقيقتها خيبة خليفة عاشق ، امتحن الله سبحانه وتعالى المسلمين به ثم أنقذهم من خيبته؟! كلّ هذا جائز .

لكن تبقى الحقيقة صامدة .. وهي تتناثر تفاصيل هذه العلاقة بين سائر الكتب ، لتشهد كُل تفصيلة منها على ما يمكن أن يئول إليه حالُ حاكمٍ انجرفَ وراء شهوته !

العصر العباسى

صورة موجزة للمجتمع البغدادى :

على مدى ما يقرب من المائتى عام (١٣٠ - ٣٢٠هـ) ، ظل العصر العباسى بخلفاء دولتيه الأولى والثانية على العالم الإسلامى متماسكا ، اللهم إلاّ دولة الأمويين بقيادة عبد الرحمن الداخل فى الأندلس ، فكان قيام العباسيين على أنقاض بنى أمية فى الشام إيذاناً بعصر من البذخ والفخامة ،لم يشهده المسلمون من قبل . إذ بعد مقتل مروان بن محمد فى مصر ، و اتخاذ مدينة الهاشمية بدلا من الكوفة عاصمة لأبى العباس السفاح ، ثم بناء المنصور لعاصمة أخرى باسم بغداد .. بعد هذا كله ، لم يعانِ بنو العباس فى اتخاذ النظام الوارثى نمطاً فى الخلافة ، ذلك لأن بنى أمية قد وضعوا أساس هذا النظام ، ولم يعد أحد من رجالات المسلمين وعلمائهم يعارض فى سريانه ، لذلك فإن خلفاء بنى العباس ، لم تشغلهم هذه المسألة بقدر ما انشغلوا بثلاثة أمور هى : توسيع رقعة الدولة وتأمين حدودها بحملات تأديبية ، والاستزادة من كل ما يسبغ على مركز الخلافة والخليفة مظاهر الأبهة والعظمة بعد أن زادت الأموال المجموعة من شتى أنحاء العالم الإسلامى زيادة سنوية ملحوظة ، وثالث الأمور هو ترتيب كل خليفة لأدوار أبنائه فى تولى الخلافة من بعده تفادياً للمنازعات والمواجهات التى تضعف الدولة .

غير أنّ إسباغ مظاهر البذخ والأبهة على مركز الخلافة قد اتخذ سبلاً عديدة .. منها استقدام أشهر الشعراء من شتى الأنحاء وإجزال العطايا لهم لحفزهم على مدحهم بالقصائد الطنّانة التى تخلد من عظمتهم ؛ ومنها

التوسّع في اقتناء الإماء والجوارى توسعاً مبالغاً فيه ، والإهداء منهن لأتباعهم من الوزراء والقضاة وعلية القوم ، ومنها التوسع فى بناء القصور الضخمة ، مثل قصر الخلد والشاه والعروس والشبداز والبديع والغريب والبرج والجعفرى والهاروني واللؤلؤة .. فتكلّف تشييدها ملايين الدنانير، ومنها التوسع فى استجلاب الغلمان والخصيان وظهور طائفة الجوارى الغلاميات باقتراح من زبيدة أم الأمين ، لكى يقلل من استجلاب رقيق الخصيان، ومن الغريب أنه استحسنهن ولقين منه الرضا والقبول ، فكان يتباهى بإبرازهن للناس !! كما أن منها التوسع فى عقد مجالس الخلفاء .. حيث كان يدور فيها كل مايخطر ومالا يخطر على البال من غناء وطرب ومجون ، فضلا عن مجالس الأدباء والفقهاء ورجال العلم والشعراء ، فحلل فقهاء الحنفية شرب بعض الأنبذة غير المسكرة .. كنبيذ التمر والعسل والتين والشعير ، والزبيب المطبوخ أدنى طبخ .. فشرب الخلفاء ما أحلّوه وشربه الناس كذلك ، لكنهم مالبثوا أن توسعوا وتجاوزوا .. فشربوا المسكر المحرّم .. وفى ذلك قال ابن الرومى :

أبـاح العـراقىُّ النـبيذ وشـربهُ وقال حرامان : المدامة والسـكْرُ .

وقال الحجازىُّ : الشرابان واحد فحل لنامن بين قوْليْهما الخمرُ

سآخذ مـن قوليهما طرفيهــما وأشـربـها لافـارق الـوازرَ الـوزرُ

وبنفس وتيرة التوسعات لإسباغ مظاهر البذخ ، طفرت التجاوزات على التوسعات الخمسة المذكورة آنفا .. مما أسفر عن سَفَه بالغ فى الإنفاق ، وإتساع الفجوة بين سائر أبناء المجتمع البغدادى وبين بقية أهل العراق نفسه وبقية أنحاء الدولة .

ففى مقابل الثراء الفاحش لدى طبقة محدودة تحيط بالبلاط الخليفى ، نجد فقراً مدقعاً يسود غالبية القوم ، حرمت من الحدّ الأدنى للحياة الكريمة ، واستوى فى هذا الحرمان الأحرار والعبيد الذين عملوا فى القصور والضياع على السواء .. فأفرز عدم توازن فى الأرزاق ، وقلاقل وثورات تولدت من الأعماق .. مثل ثورتى الزنج والقرامطة ، وكثرت الجمعيات السرّية واعتنقت عقيدة التشيع بكل فرقها ، ولجأ الناس إلى الهرب من الواقع الأليم إلى التعلّق بالغيبيات وانتظارهم مجىء المهدى المنتظر الذى ينقذهم من هذه الهوة السحيقة، ويخلّصهم من هذة الطغمة الظالمة بنشر العدل بينهم جميعاً .

كما نجم عن كثرة مجالس الخلفاء – الماجن منها وغير الماجن – وضرورة وجود نديم يلاطف الخليفة ويشاركه فى سمره وشرابه ـ أن تمكن بعض هؤلاء الندماء من التسلق والوصول إلى مناصب الوزراء والقضاء ، وهؤلاء كان من طبائعهم الاستغلال والاغتراف من أموال الدولة بحق وبغير حق ، ولمّا يفتضح أمر أحدهم ، يصادر الخليفة كل ما جنته يداه، وقد يلقى به فى السجن أو يدعه حُرّاً طليقاً .

ونجم أيضاً عن ذلك وصول بعض الجوارى إلى مرتبة متميزة عن سائر زميلاتها ، بتملّك قلب مولاها الخليفة ، فيصطفيها حظية له، وقد يتزوجها ويعلن زواجه إذا ما ولدت له الولد ، فصار كثير من الخلفاء أبناء لتلك الجوارى الحظايا.. فالمنصور كانت أمه جارية حبشية ، كما كانت أم الهادى والرشيد جارية رومية ، والمأمون من أم فارسية جارية ، والمعتصم كانت أمه كذلك ، والواثق من أم رومية .. وكانت كل واحدة من تلكم الأمهات الجوارى ،

تتدخل فى شئون الحكم وتكثر من تعيين بنات أرومتها فى مناصب القصر ، ومنهن من كن يتجاوزن حدّ المعقول ، فيقُمن من أنفسهن رعاة للقضاء والقضاة !! ولدينْا فى أم المقتدر الرومانية مثل صارخ على هذا .

ونجم عن هذا وذاك فسادٌ خُلقى ، ظهر فى صُورة الغَزل المكشوف بالمؤنث والمذكّر على السواء . فامتهن جسد الإنسان بنوعه امتهاناً زرياً، بل وانتشر وباء التعلق بالغلمان المرْد ، واختلط الأمر على العامة من تزَيّى الجوارى أزياء الرجال !!! فلا نعجب أن يطفح على سطح الشعر هذا النوع من الغزل الشاذ الرخيص ، ويكون من أشهر شعراء هذه الحقبة أمثال مطيع بن إياس فى الكوفة، وبشار بن بُرد فى البصرة ، ووالبة بن الحباب ، وأبى نواس فى بغداد.

ومع ذلك فلا بد أن يبقى نفر قليل من القوم قابضين على نقاء معدنهم وقوة عقيدتهم ، فكان منهم من يفضل العُزْلة عن الفساد بخلوةٍ ، كما أن منهم من كان يكافح الفساد بصموده ودفاعه عن القيم الإسلامية الخلقية.. ومن هؤلاء الصامدين واصل بن عطاء ، ومالك بن دينار ، وغيرهما، فتارة يلقون آذاناً صاغية من الخليفة فيمنع ويزجر ويسجن ، وتارات يغمض ويصم أذنيه أو يتغاضى ويصفح منساقاً .. والله أعلم بسريرته وصدق تجاوبه، ومتى صدق أو تظاهر بأنه صدق .

ونجم عن ذلك أيضاً أن تحوّلت متاجر النخاسة المنتشرة لبيع الرقيق ، إلى دور للهو ومعاقرة الخمر والمجون، فصارت مواخير تُؤدّى فيها الرذائل كواجبات يومية ، وما استتبع ذلك من شيوع الإفساد على أيدى أبناء وبنات الجنسيات الوافدة .. وفى ذلك يقول علىّ بن الجهم :

أوانس ما فيهنّ للضيف حشمة ولا ربّهن بالمهيب المبجل
يسرّ إذا ما الضيف قلّ حياؤه ويغفل عنه وهوْ غير مغفّل
ولا يدفع الأيدى السفيهة غيرةً إذا نال حظا من لبوس ومأكل
لك البيت مادامت هداياك جمة ودْمت مليا بالشراب المعسّل

وأدى ذلك فى النهاية إلى إفلاس خزانة الدولة ، وعجزها عن دفع رواتب الجند من الجنسيات الكثيرة المستجلبة .. مما جعلهم يحدثون الاضطرابات والقلاقل ، وتكثرحوادث السطو على الممتلكات ونهبها، فضلاً عن تضاؤل نفوذ الخلفاء ، وجوْر جنودهم عليهم بالخلْع المباشر ، أو بالتآمر والتحريض على التخلص من الخليفة بالاغتيال أو دس السّم .. وقد كان للجوارى الحظايا الدور الأكبر فى التنفيذ .

وقد شجعّ هذا كله سائر الأقطار التابعة على الخروج على طاعة الخلفاء المتهالكين ، فاستقلّ كل أمير بقطره ، وأعلن نفسه ملكاً عليه أو سلطاَنا أو أميراً على أقل الاحتمالات ، ولم يعد للخليفة العباسى من وجود إلاّ الوجود الرمزى ، الذى ينسب إلى النسب الشريف ، وبدأ الانفضاض والتفكك الكبيران.

فإذا ما أضفنا إلى ذلك أهم عامل كان قد أراح بنى العباسى من معاناته فى البدء، ألا وهو نظام الخلافة الوراثية ، إذ انقلب عليهم للإجهاز على تماسكها وقوتها الأولين ، فقد حدث أن زاد عدد أبناء الخليفة ، وفضلاً عن أن كل أم لوريث كانت تبذل غاية جهدها لجعل ابنها ولّيا للعهد أسبق من

إخوانه الآخرين غير الأشقاء ، مما كان يضطر كل خليفة أن يرتب دور كُلٍّ من أبنائه فى خلافته له ، وكانت النتيجة الحتمية محاولة كل وريث الالتفاف حول ماوضعه أبوه من ترتيب ، ليكون لابنه هو الآخر نصيب ، فآل الأمر إلى نشوب صراعات ومنازعات بلغت حدّ الموت المشكوك فيه ، وحدّ حرق بغداد نفسها .. وقد حدث هذا عندما حاول ذلك كُلٌّ من الرشيد والمتوكل فى وضع جدول زمنى لاعتلاء سدة الخلافة بين أبنائهما .. وسبحان الله مالك الملك .

بَصْبَص

قصران ذاع صيتهما بين أهل المدينة ، وطبقت شهرتهما آفاق العالم العربى : قصر ابن رامين ، وقصر يحيى بن نفيس ويرجع سبب شهرتهما إلى أنهما كانا مصدرين لتزويد شتى أنحاء الولايات بالجوارى الحسان ذوات الأصوات العذبة .

وكانت على رأس مَنْ تَخَرَّجْنَ من بيت ابن رامين حبابة وسلاّمة . أمّا ابن نفيس فقد صدّر من قصره إلى الشام والعراق غيد الجوارى ، وكانت فى مقدمتهن بصبص تلك التى دربها على الغناء والعزف ، فكان المفتونون بها أكثر من المعجبات ، وبطبيعة الحال كانت الغيورات منها أكثر من المترددين عليها . نضيف إلى ذلك اعتباراً آخر ، هو أن ابن نفيس كان أكثر حذقاً لحرفته من منافسه ابن رامين ، فكان يكثر من استقدام أعلام شعراء عصره ، لِيَمْلئُوا المعمورة بأشعار الغَزل والتشبيب بجواريه ، فيجزل العطايا لكل من تجلب أشعاره المزيد من الزبائن ، فضلاً عن حرصه على تجديد المعروضات

لديه من الجوارى .

وتظل بصبص هى العامل المشترك بين الغاديات والرائحات ، كأنها الشمس الدائمة التى أنشدها ابن أبى الزوائد :

بصبص أنت الشمس مزدانة　　فإن تبدّلت فأنت الهلال
سبحانك اللهم ما هكذا　　فيما مضى كان يكون الجمال
إذا دعت بالعود فى مشهد　　وعاونت يمنى يديها الشمال
غنت غناءً يستفزُّ الفتى　　حذقاً ،وزان الحذق منها الدلال

وفى ذات ليلة قَدِمَ على مجلس اللهو ضيفٌ جديد ، تبدو على ملامحه سمات الوقار ، ومظاهر الثراء غلّفت جسده الممتلئ ، لكنّ أُذنيه وعينيه قد اشتركت فى الاتساع الذى شغل أغلب وجهه ، فبَدَا أنفه صغيراً مثل فمه الذى تعلّقت به لحية صغيرة منمّقة ، لا تهزّ شعيراتها غير أنفاس ضئيلة تخرج من أنفه الدقيق ، وبينما كانت بصبص تشدو

قلبى حبيس عليك موقوف　　والعين عبرى والدمع مذروف
والنفس فى حسرة بعصتّها　　قد شفّ أرجاءها التساويف
إن كنت بالحسن قدوصفت لنا　　فإننى بالهوى لموصوف
ياحسرتا حسرة أموت بها　　إن لم يكن لى لديك معروف

فإذا بالضيف الوقور ينتشي مُهَلّلاً ، وظل يصيح صيحات مشوبة بأنّات لوعة ، ونطق معبّراً عن مكنونه :

بأبى واللّه أنتِ ! إنى لأرجو أن تكونى عنده أفضل من الشهداء . وانتابته حالة من البكاء الحار وهو يتمتم ! « ياالله لما يلقى العاشقون » . فاقتربت منه بصبص ، وانحنت عليه ، تربْت على كتفه ، مطيّبة خاطره ، وتسأله : ماذا آلمك يا أمير ؟

فرفع رأسه إليها وازداد اتساع حدقتيه دهشة وهو يجيب متسائلاً :

« أما انتبهت لما تلحقينه بالقلوب من ويْلات ؟ ! » .

فامتزج صوتها بضحكة كمن تريد أن تداعبه : لوْ انتبهتُ لمَاَ غنيتُ، ولوْلا أننى غنّيتُ لما شرّفْتنَا بقُدومكَ يا أمير .

فقال : كأنك تُطلقين صوْتك ليمس شغاف قلوب الرجال !

فقالت ضاحكة فى دلال : بل ليوقع بها يا أمير .

فانتهز تواصل الحديث قائلا : أتفعلين هذا وقلبك حبيس لواحد فقط !؟

قالت : هل تعرفه ؟ .

قال : « لستُ على دراية بالمجهول الذى تكتمينه » .

قالت : « وأنا مثلك أيضاً » .

قال (ضاحكاً) : « كأنك لا تخفين المستتر » .

قالت : « ليس فى حوزتى ما أجتهد فى ستره » .

قال : « ضرورة الصنعة إذن ياجارية » .

قالت : « لا ، ولكن هى من ضعف الرجال يا أمير» .

قال : «هو فخٌ إذن لاصطياد الضعفاء » .

قالت : « مادمت عرفته فلن تقع فى حباله أيها الأمير القوى ! »

قال وهو يقهقه : « بالله لا أعرفُ ماذا تعنينه أو تنسجينه من شراك!! »

فازدادات ثقة بنفسها وهى تعقّب بقولها : « إذن فأنت واقع لا محالة ! »

وناداها ابن نفيس من آخر القاعة ينبهها : « توقفْتِ عن الغناء طويلا ، وضيوفنا المنتظرون للسماع كثير » !

وانتصب الرجل واقفاً ، يتطاير الشررُ من عينيه الواسعتين ،

ويطلق كلماته ! : « أهكذا رباك ذووك ياصَاحِبَ الجوارى ! ؟ »

هرول ابن نفيس صوب الأمير يعتذر ، فى حين كانت عيناْه مصوّبتين نحو بصبص كمن يشير عليها بإنقاذ الموقف –وهى اللبيبة الفطنة كما يريده سيدها –

فقالت : « ماذا تريدنى أن أغنيه لك ياأمير ؟ »

وأجابها الرجل متحديا : « لا أريد أن يسمع غناءك أحد غيرى » .

قالت مُبادرة : « متى تريدنى لذلك الغناء يامولاى ؟ » .

قال : « الآن .. هيا معى إلى القصر .. » .

تلقّف ابن نفيس الفرصة متسائلا : « هل تعرف بكم اشتريْتها. ؟ » .

وواصل الأمير متحدّياً : « مهما بالغت فى التقدير.. كم تضع لها من ثمن يشبعك ؟ »

ردّ النخّاس قائلا : « اطمئن ، فمهما بالغت ، فلن أزيد عمّا عرفه القوم، من ثمن لبصبص » .

عقّب الأمير ساخراً : « يبدو أننى سيد القوم ، ولا أعرف ثمنها !! كم يكون ؟ »

اعتذر الرجل قائلاً : «بل أنت سيد القوم ، هل تذكرين يابصبص بكم اشتريتك ؟ . »

وأجابت بصبص : « بخمسين ألف درهم .. حينما كنت صغيرة جاهلة لا أعى ».

فأجاب الرجل متحدياً : « وأنا اشتريتها بمائة وخمسين ألفاً » .

ودهش ابن نفيس قائلاً : « لكننى .. لكننى لا أبيعها ياسيدى ».

* * *

لكن أنّى لصاحب الجوارى أن يقف عَقَبَةً فى سبيل رغبة الأمير المهدى فاشتراها ولكن فى السرّ ، إذ حجبها عن أبيه الخليفة ، وسعد كما أراد بغنائها له وحده ، بل أنجبت له عليّة التى نبغت فى الشعر والغناء على السواء، وكأنها تزيد أباها إمتاعاً وإسعاداً ، ومن جهة أخرى ثَبتتْ قَدَمَىْ أمها فى قصر أمير المؤمنين .

لقد كان حرص المهدى على كتمان خبر شرائه لجاريته بصبص عن أبيه خوفاً منه - كان فرصة لهذه الجارية تستغلها لفرصن نفسها على المهدى، وتحقق كل رغباتها بنعومة لا تسلب بها كرامة مولاها ، وهذا فى حدّ ذاته نوع من حيل الإبقاء على الثقة التى جعلت منها أولى حظاياه دون أن يفطن لحقيقة نواياها ، ولا عجب .. فتوافر الثقة القائمة على الحب يعمى البصائر عن الحقائق .

غـــــــــادر

لا أدرى إن كان هذا هواسمها حقيقة ، أم هى صفة اشتهرت بها ؟ لكنهـا هى هكذا سُجلت فى كتـاب الأغانى ، ولا يسعنى إلاّ أن أتساءل كيف يستقيم الغدر مع توافر الثقة ؟! هل هى قوة مَنْ أطلق عليها هذه الصفة فصارت علماً عليها ، أم هو فُحْش ما فعلته من غَدْرٍ بسيّدها فذاع صيتها به ؟!!

فإذا ما غلّبنا الاحتمال الثانى .. صار من حقنا أن نعرف من هو المغدور به ، ومن هو المحظوظ الذى غدرت بسيّدها من أجله ؟

فى الحق ، أنّ غادرَ ـ نظراً لما كانت عليه من ملاحة وجه واستدارته ، وعُذُوبة صوتٍ وثراء طبقاته ـ قد منحها الله بذلك قدرة على التحكم ، فهى تسلب لبّ من يلقاها ، وتأسر مسامعَ كل من يصغى إلى شدوها . لذا كانت تدلّ دلالا على وليها الهادى أمير المؤمنين ، وهو يزداد ولهاً بها . ولايطيق أن يمس أحد شيئاً منها حتى رداءها ، كما كان لا يطيق أن يأتى يوم يبتعد عنها أو يفقدها .

وذات يوم ، بينما هى تغنيه ، وهو واضع رأسه فى حجرها .. إذْ عرض له فكر وسهو . ولمّا لاحظت غادر ذلك على الهادى ، سكتت عن الغناء ، وانتبه لتوقفها المفاجئ وسألها : لماذا توقفْت ؟

فأجابته بسؤال آخر : وفيمَ شردت يامولاى ؟

قال : قد وقع فى فكرى أنى أموتُ وأنّ أخى هارون يتزوجك عندما

يتولّى الخلافة .

قالت : كيف يسْلمك لهذه الأفكار السوداء ما أغنّيه لك يامولاى !؟ اسْتَعذ بالله ؛ ليطمئن قلبك ، فالموت حقّ على كل حيّ ، ولكن الكلٌ حتماً ملاقو حتفهم قبلك .

فابتسم وهو يردّ معقّباً : أنبوءة تلك ياجارية ، أم أنك توقفين عجلة الحياة من أجلنا ؟ ! » .

فطيّبت خاطره متمتمة : « لن أعيش لأحَدٍ بَعْدَك يامولاى » .

وتنّهد يائساً : ماذا بيدك أن تفعليه أمام سطوة هارون أخى وحقه عليك بعد مماتى ؟! » .

وكما لو كان يريد أن يقطع الشكّ باليقين ، نادى مَنْ يستقدم إليه أخاه، حتى إذا ما جاء بادره مصارحاً بهاجسه .

وكانت إجابة هارون مصحوبة بضحكة تطمئنه : « من منّا يا أخى الذى يعلم موعد انتهاء أجله ؟! » ..

لكن لوعة الهادى جعلته يلحّ قائلاً : لن يهدأ لى بالٌ حتى تحلف أنّى متى مُتّ لا تتزوجها » .

فلم يجد الرشيد مناصاً من الحلف إرضاءً لأخيه ، بل زاد تحت إلحاحه ، أن يذهب ـ فى حالة حنثه لليمين ـ أن يذهب ليحج سيْراً على قدميه ، وأن يُطلق زوجاته ، وأن يعتق المماليك ، وأن يوقف كل مايملكه على وجوه البر والإحسان ، فى سبيل الله .

وأمام كل هذا الحصار اضطرالرشيد إلى استيفاء الأيمان بهذا الشرط الجزائى . ولم يقنع الهادى بقسم الرشيد ، بل استدار إلى جاريته الحظية غادر، وأحلفها بمثل ذلك فحلفت .

لهذا الحّد من الغيرة الطاغية ، وهذا القدر من الأنانية الباغية ، أراد الهادى أن يضمن بقاء غادر بلا بديل يحلّ محله فى قلبها ، وكأنه يخاف أن تغلى عروقه بدم الغيرة حتى وهو متصلب فى قبره !!

ولم يمض شهر على هذه الواقعة ، إلاّ وقد غادر أمير المؤمنين الهادى عالم الأحياء ، ثم بويع الرشيد أميراً يخلف أخاه ، ولم يكد يتولى الخلافة حتى بادر ببعث من خطب غادر ، ودعاها إلى قصره .. ومثلت أمامه وهى تقول :

« كيف تصنع بالأيمان التى أقسمت بها ؟ وبكل لهفة وبساطة أجاب : أكفّرعن الكلّ وأحُج راجلاً » .

لم يسعها والخليفة هارون يبدى كل هذا الاستعداد لتحمل مشاق التكفير من أجلها .. إلاّ أ نْ تطأطئ رأسَها راضية شاكرة !

ولفت الأيام الزوجين السعيدين فى ثناياها بين السمر والسهر ، تشدو له وحده بألحان عذبة حتى يضع رأسه فى حجرها وينام ، أو يبادلها الوضع فتلقى برأسها فى حجره ويغلبها النعاس ، فيبقى ساكناً بلا حراك لئلا يقلقها أو تصحو مضطربة .

وفى مرة من هذه المرات .. بينما هى نائمة ، انتفضت فزعة وهى تبكى ، واضطرب الرشيد وسألها متلهفاً .. ما الذى أفزعها .. ؟

فقالت : رأيت أخاك الساعة فى النوم يلومنى غاضباً بهذه الأبيات :

أخـلفْتِ وعـدى بعـد مـا ... جـاورتُ سـكان المـقابـرْ
ونكحـتِ غـادرَةً أخـى ... صـدق الـذى سمّاك غـادرْ
أمسـيْتُ فى أهـل البْـلى ... وغـدوْت فـى الحـوُر العوَائـرْ
لا يْهنـكِ الإلْـفُ الجـديـ ... ـدُ ولا تـدُرْ عنْك الدّوائـر
ولحقـت بى قبـل الصّبَا ... ح وصرْت حيثُ غَدَوْتَ صائرْ

وقهقه الرشيدُ مطيّباً ومُلاطِفاً ، وقال : « أو تخشين الموت ياغادر ، أم لأنك تخافين لقاءَ أخى ؟! » .

واصلت غادر فزعها كأنها صمت أذنيها عن مداعبته لها وقالت : « مازال صوته يتردد فى سمعى بهذه الأبيات ، كأنه نقشها فى قلبى ، فما عدت أنسى أى كلمة فيها » .

فقال الرشيد : « أضغاث أحلام ، وما عليك إلاّ أن تستعيذى بالله من نَزَغاتِ الشياطين » .

فصاحت مؤكدة : « لا .. ليست كذلك ياأمير المؤمنين » .

وردّ عليها بقوله : « إذن هو مَسٌّ من الجن أصابك بالخبال » .

ارتعشت شفتا غادر ، وانحاش صوتها ، وظلّت تضطرب وترعد حتى فاضت روحها بين يديه ، مما أسلمه إلى حزن مرير أنساه ما سعد به معها لعامين كاملين ، لم ينجب منها وليداً ، وكل ما كان ينطق به عندما وُوريت التّراب :

« إناّ لله وإنا إليه راجعون ، أنتِ السابقة ونحن اللاحقون . » ثم أعلن

عن اعتزامه الحج راجلاً فى العام التالى .

ولم يكن أحد يدرى من الدوافع الخفية لهذه المغالاة فى أداء فريضة الحج ، إلاّ التقوى الزائدة التى زعمت عن الرشيد وإنعامه بها !!

ذَاتُ الخَـــــال

خنث ، أو ذات الخال – التى اشتهرت به على شفتها العليا – واحدة من ثلاث جوارٍ حظين بحب هارون الرشيد .

وإذا قلنا إنهن ثلاث اللائى فُزْنَ بقلب الرشيد ، وولعه العارم بهن ، توقعنا ما بلغت كل منهنّ من درجات الحسن والجمال والفتنة ، وإجادة العزف وحلاوة الصوت ، درجات ميّزتهنّ عن مئات الجوارى اللائى غُصّ بهن القصر الكبير .

فإذا ما سهلت علينا مهمة حصر المقارنة بين الثلاث الجوارى الحظايا لدى أمير المؤمنين بالمواهب الفاتنة ، نقول : إنهن تساوين فى درجات التميُّز، غير أن كل واحدة من الثلاث قد انفردت ببروز موهبة لديها بروزاً يفوق الموهبة نفسها لدى الأخريات .

فما هى تلك الموهبة التى جعلت ذات الخال تبرز بها عن الجاريتين : غضيض وهيلانة ؟ لقد شبّب بها إبراهيم الموصلى عندما حجبها عنه مولاها الأول قرين أبو الخطّاب ، وازداد بها جنوناً عندما اقتناها الخليفة الرشيد ، ورفض بكل إصرار أن ينعم بالنظر لها أوالاستماع إلى صوتها أحد غيره .. فسار الموصلى فى الطريق وهو يردد :

لــــذات الخـــــال أرقـــنى ... خــــيال بــات يلثمـــنى

بــكى وجــرى لـه دمــع لمــا بالقلـــب مــن حـــزن
فــلا أنســـاه أو أنـســى إذا أدرجــت فــى كفــنى

وذات الخال ـ كامرأة ـ عرفت قدر نفسها من تهافت المعجبين عليها ، مما جعلها تزداد ثقة بنفسها ، وبلغت قمة هذا الاعتداد بالنفس عندما احتلت قلب الرشيد أمير المؤمنين ، لكنها فى الوقت نفسه تدرك تقلب مزاجه ، وحتى تأمن ويْل هذا التقلّب ، وحتى تضمن ـ أيضاً ـ استمرار بقائها على قمة قلب الخليفة أطول مدّة ممكنة .. فما الذى يجب عليها فعله ؟

استعانت بذكائها اللماح ، فهو برغبته الحارّة فى اقتصارها عليه ، يحتاج إلى مايجدد لهفه عليها ، يحتاج إلى المداومة على استثارته ، أو تسرّب الملل إلى نفسه . وذات ليلة ، ألحّ عليها سائلا ، ومشدّداً أن تصدقه القول فلا تبطئ فى الإجابة ، وكأنها كانت تتحين مثل هذا السؤال المتوقع ، فبادرت بالقول مؤكدة أن هذا هو عهدها به ،ولن تخفى أو تكذب ماعاشت..سألها :

« ألمْ يختل بك إبراهيم الموصلى قط ؟ »

أجابت بتخابث واقتضاب : « مّرة واحدة »

غلا الدم فى عروق الرشيد ، وكاد يصيح غاضباً ، فلاحقته مهدئة :

«لم أدع الفرصة التى يكون فيها الشيطان ثالثنا يا مولاى . »

فلاحقها باستفسار أهدأ « لكن ألم يدعُه هو إليكما ؟» .

وتظاهرت بحرصها على الصدق قائلة : « فى الحق نعم ، لكننى كنت أقوى من دفعه إلىّ » .

فهدأت نفسه وأضمر شيئاً . ثم عادت ذات الخال إلى جناحها فى قصر الخلد ، وهى تضرب أخماسا فى أسداس ، وظلت حائرة لاتلوى على شىء، لأنها لم تلمح فى وجه وليّها ما تفهم به ما ينتويه ، وظلت بانتظار دعوته لها كعادته فى الليلة التالية ، ثم ما تلاها من ليالٍ بدون جدوى .

تارة تطمئن نفسها مبررة عدم دعوته لها بانشغاله فى أمور الحكم والدين، وتارة يلحّ طوفان الشك حين يترامى إلى سمعها دعوته إلى إحدى حظيتيه سحر أوضياء ، وعندما ترهقها الحيرة بين التمنىّ والتشكك ، تلهث متنسمة أخبار الرشيد فى مجالسه وفى تنقلاته بين حجرات جواريه .

تُرى هل أخطأت بالتزامها الصدق معه ، أو تسرّعت باستثارة غيرته عليها؟ لابدّ من أن تقطع الشك باليقين ، فماذا عليها أن تفعله ؟ هل تستأذن فى المثول بين يديه نادمة مسترحمة ، أو تلقى بنفسها فى طريق اعتاد أن يسلكه لتقبّل قدميه مستغفرة مستعطفة ؟

لم يُطل الرشيد عليها أيام حيرتها ، وإنما بلغها ماعرضه على جلسائه فى أحد مجالسه .. إنه يريد أن يهب ذات الخال لأحدهم بشرط ألاّ يغار عليها إذا ما تعدّدت خلواتها بمريديها ! أيّكم لايبالى أن يكون كشخاناً حتى أهب له ذات الخال ؟ وبينما الجلساء قد ألجمتهم المفاجأة ، لم يمهلهم وصيف الرشيد (حمويه) حتى يستجمع أحدهم مشاعره ويبدى رغبته فى التشرف بقبول الهبة ، فسبقهم الوصيف بنوال هذا الشرف ، أن يكون وصيفاً للرشيد .. وكشخاناً أيضاً . لقد اعتبرت ذات الخال ، أو ذات الخبرة بالرجال ، أن هذا العقاب الذى أوقعه الرشيد عليها هو دليل المحبّ لها ، المبقى على شعيرة

مجالستها ، العاجز عن طردها من قصر الخلد كله بعيداً عنه . وإلاّ لما كان الاتفاق المدبرّ بينه وبين وصيفه حمويه ، وعلا صوت من داخلها :«هو مدبرٌ ولا شك . »

ظلت ذات الخال تطمئن نفسها ، حتى جاءها مولاها الجديد حمويه ، وأمرها بحمل أمتعتها إلى جناحه القائم فى نهاية قصر الخلد .. فقبلت الوضع الجديد صاغرة ، ربما تلوح لها فرصة استرداد موضعها القديم فى قلب الرشيد .. ولا فرق بين هنا وهناك طالما أن الجميع يعيشون فى كنف الخليفة ويتبعونه

وكان حدسها فى محله ، عندما اشتاق الرشيد لسماع غنائها ومشاهدتها ، فبعث إلى حمويه من يبلغه بأمره أن يجهز له مجلساً لديه ، ليسهر مستمتعاً بإنشاد ذات الخال ، وكفاه ما سعد به منها وحده .

هرول حمويه فرحاً إلى ذات الخال ، يحمل جواهر ثمنها اثنا عشر ألف دينار ليزيّنها ، لكنه توقف مشدوها ولسانه يتلعثم ، متسائلا : أين الخال الذى زيّن أعلى شفتيك ؟

فقالت متهالكة : « نزعتها بمقراض » .

وزاد جزع حمويه وصاح : لكن مولاى أمير المؤمنين أوْدعك عندى كاملة غير منقوصة !! فكيف تضعيننى فى هذا الحرج ؟» .

سألته : « ألهذا فقط تخشى المساءلة ؟ » .

وأجاب مندهشا : « ما الذى أخشاه غيره ؟! » .

وأرادت أن تهدئ من روعه قائلة : « اطمئن ، فمولاى انقطع عن رؤيتى » .. وأمام تأكيده لها أنه قادم الليلة لينعم بمشاهدتها وسماعها ، وأنه

استأجر كُلَّ هذة الجواهر لتزدان بها أمام سيدّه ، بادرته وهى تحاول إخفاء نبرة الحدّة والتشفّى قائلة : « إنى جاهزة لاستقباله الليلة ، هات جواهرك . لكنه تباطأ مستدركاً ، يستوضحها محاولاً إخفاء جزعه : « والخال .. ماذا أقول له عنه ؟ »

قالت : « أعفيك من مشقة الإجابة ، فأنا التى سأجاوبه » .

قال مستزيداً الإيضاح : « بماذا تعتذرين ؟ » .

ضحكت وقالت : « سأقول . إنى أطيع رغبة سيدى الجديد حمويه » .

شهق الرجل هلعاً : « أية رغبة هذه التى طلبتها منك ؟ .» وتظاهرت بالجدّية وهى تقول : « ألست أنت الذى أمرتنى بنزع الخال للتخلّص من كل ما أثار إعجابه بى !!؟» .

فجحظت عينا حمويه رهبة ، إذ أنه مهما بلغ من قدرة على البيان ،فلن يقدر على مجابهة هذا الادّعاء من جارية كذات الخال على وجه الخصوص.. ولم يسعه إلاّ إن أدار ظهره لها وولى هارباً من أمامها ، حتى ألقت به قدماه عند قدمى الرشيد ، وظلّ يحلف مغلّظاً أن لا شأن له بما فعلته ذات الخال بنفسها ، وأنها تلصق به اتهاماً هو برىء منه ، وأنه لم يبدّد أى عضو من أعضاء الجارية الموهوبة التى أودعها لديه أمانة !! وأنه على استعداد لدفع كل مالديه من مال عوضاً عمّا ألحقته بنفسها .

ولمّا هدّأ الرشيد من روعه ، وأعطاه الأمان ، واستوضحه الأمر ـ حاول عندما فهم ماجرى أن يخفى غيظه الحزين بابتسامة ، والتفت للعباس بن الأحنف الذى كان جالساً ساعتها أن يعمل شعراً فى هذه الحادثة .. فأنشد

تخلَّصْتُ مِمَّنْ لم يَكُنْ ذا حفيظة

وملت إلى من لا يُغَيِّرُهُ حال

وإن كان قَطْعُ الخَال لما تعطفت

عَلَى غيرها نفسى فقد ظلم الخال .

فهدأت نفس الرشيد وطابت ، واستعاد بالغناء سماع البيتين ، حتى شعر بالرضا الذى دفعه إلى النهوض واصطحاب حمويه إلى ذات الخال لمصالحتها . وهناك سألها : من ذا الذى أمَرَك بهذا يا خنث ؟ وصمتت فى حين كانت تنقل عينيها النجلاوين بين الرشيد وبين وصيفه حمويه ، ثم تحركت شفتاها ناطقة باسم الرشيد . وقهقه مولاها وهو يسألها : كيف ؟ قالت : « تخلصت من هذا الذى شارك مولاى فى الإعجاب بى ، لأُبقى على مايُبقينى لك وحدك يامولاى . »

هال الرشيد ما فعلته بنفسها ، وربت على كتفها مطيّباً ومجدّداً عهده بها : لا عليك ياخنث ، إن كنت بالخال جميلة ، فحسنك من غير الخال باقٍ على حاله . ووصل إلى سمعه من بعيد غناء لإبراهيم الموصلى :

ياليت شعرى والنساء غوادر

خلفُ الوعود بهن غير قليل

هل وصل ذات الخال يوماً عائد .

فتزول لوعاتى وحرّ غليلى

أم قد تناست عهدنا وإخالها

عن ذاك حالت دون كل خليل ؟

وتمتم الرشيد وهو يصطحبها إلى مجلسه : هيّا هيا .. لم يعد الموصلي يهمنا حزنه .

هَيْلانَة

هى من حظايا الرشيد البارزات ، لا لأنها كانت جارية لدى يحيى بن خالد البرمكى ، وأخذها منه عنوة ، ولكن لأنها أيضاً كانت بديعة الجمال ، واضحة الكمال ، كلماتها منتقاة نادرة ، ولهجتها مستعطفة آسِرَة .. وكثيراً ما كانت تقول قولة آمرة «هى الآن» .

ومن ثم سُمّيت هيْلانة بهـذين المقطعين ، فلم تكن تحبّ أن تنتظر كثيراً إلى أن يُلبّى المأمور أمرها ، وإنما تحبّ التلبية فوراً ، ولوْ كنت عايَشْت عصرها لأطلقْتَ عليها فورية اسماً لها .

لهذا كان كل من يعاملها يسابق فى تحقيق رغبتها ، حتى ولو كان الرشيد نفسه ، فما هذا الذى كانت تجرؤ على البوح به لأميرها الرشيد راغبة فيه ، أو موحية به ، إنها ولاشك حياتهما الخاصة .

خاصة أنها وجدت لدى الرشيد المكلوم بفقد بصبص ترحيباً بها ، واستعداداً مهيئاً للانصياع لها . من هنا اكتسبت ثقة الخليفة ، وصارت هى الحظية الآمرة الناهية .. لثلاث سنوات مرّت كأنها حلم متّصل ، لم يسترح خلاله الرشيد من مشاهدته ، وكاد أن ينطق شعراً حين قال :

قد قلت لمـا ضمَّنُوكِ الثرى   وحالت الحسرة فى صدرى
اذهب فلاوالله ماسرّنى   بعدكِ شىء آخر الدهر

واعتبر الشعراء هذين البيتين إشارة البدء فى رثاء هيْلانة ، ربما استرضاء لمشاعر أمير المؤمنين ، وربما تعبيراً عن مشاعرحبهم المكنون .. ذلك لأن العباس ابن الأحنف كان فى مقدمة المحبين .

عَرِيب

من ذا الذى قال إنّى جارية !!؟ إننى سيدة القصور ، إننى صنّاجة بغداد كلها ، اسألوا الخلفاء الثمانية الذين عاشوا فى كنفى ، اسألوا الأمين والمأمون والمعتصم ، بل اسألوا الواثق أيضاً . اسألوهم وهم يؤيدون ما أزعم ، يكفى أن أبوىّ معلومان ومعروفان .. ربما كانت أمّى فاطمة هى التى كانت جارية لدى أم عبد الله بن يحيى بن خالد البرمكى ، لكن أبى .. أبى هو جعفر .. من منكم الذى لا يعرفه .. جعفر البرمكى . لقد تقدّم إلى أم عبد الله طالباً موافقتها على زواجه من فاطمة أمى ، ووافقت ، وافقت على الفور مباركة الزواج ، وتم كل شىء بما يرضى الله ورسوله ، أمّا حماى فهو الذى اعترض على الزيجة – سامحه الله ، حتى إنه عرض على أبى أن يشترى له مائة جارية ويطلّق أمى ، لكن محاولاته باءت كلها بالفشل ، لأن الحب لديه كان أقوى من إغراءات الجوارى والأموال .

آثر أبى أن يستقلّ بالحياة فى دار منفصلة عن قصور البرامكة ، وخرجت إلى الحياة فى تلك الدار العامرة بالحب ، وما لبثت أمّى أن خرجت هى الأخرى ، ولكن من الحياة كلها ، ماتت رحمها الله ، وتركتنى طفلة لا أعى من أمرى شيئاً . فأسلمنى أبى إلى مربية نصرانية .. ولمّا أوقع أمير المؤمنين

الرشيد بأهلى البرامكة ، بعث بمن يسأل كل واحد من الأهل عن أحواله ، وأمر مبعوثه بألاّ يعلمهم أنه من قِبله ، فجاء إلى عمّى الفضل بن يحيى ، وسأله .. ما خبركم وما حالكم ؟ فقال :

سألونا أن كيف نحن فقلنا   من هوى نجمهُ فكيف يكون ؟
نحن قوم أصابنا عنت الدهـ   ـر فظلْنا لريْبه نستكين

كذلك أنا .. كاد نجمى أن يهوى ، إذ لم تعد مربّيتى قادرة على إعالتى، بعد أن انقطع عنها الراتب الذى كان أبى ينقدها إياه .. لأنه اغتيل رحمه الله ، بيدّ أثيمة قتلته فى السجن ، مما جعل المرأة تخشى من إيوائها لى ، وتعمل على التخلّص منّى بأسرع ما أمكن ، وما أمكنها غير أن تبيعنى .. الله يجازيها ، باعتنى إلى سنبس تاجر الرقيق ، أظنكم تعرفونه !! إنه ذائع الصيت !! ألم تصل إليكم أنباؤه ؟كيف لا وهو الذى أجاد عرضى للبيع كسلعة مرغوبة!!؟

هنا نكاد نسمع كلاماً غاضباً من شخص آخر يؤنبها : كيف أجاد عرضك وأنا الذى استقدمت لك شتى المعلمين فى الضرب والغناء وعلوم اللسان والبلاغة وآداب الشعر والنثر !! وقدّمتك إلى شتى المجالس العالية ببغداد!! لم تنفِ « عريب » بل اعترفت بفضل مولاها الذى اشتراها من سنبس ، لكن عقدة ظلّت تؤرقها من مولاها الجديد إسماعيل المراكبى !! إذ يبدو أنها وهى البرمكية الدم ، قد حُرمت من كل ألوان الثراء والنعيم ، ومن مظاهر الفخامة وأحضان الترحيب ، فعندما تعيش فى كنف المراكبى تشعرها غصّة الضياع بالتمرّد على كل من تجد نفسها بجانبه تتبعه وتخضع لرغباته ، ولربما تخفّ هذه الغصة عندما ينجح أحد الرجالِ فى مَسّ شغاف قلبها ، فيشفع

الحبّ المتوافر بينهما قبولها مرافقته ، مرافقة القدم بالقدم ، والكتف بالكتف .

هكذا كان حظ مولاها معها ، فإن كان هو على قَدْرٍ من المال وفير ، فهى أيضاً ذات حُسْن بالغ ، وإذا كان كلٌّ من المال والحسْن سريع الزوال ، فإنها تزوّدت بموهبة تظلّ بعد موتها تتردد فى الآذان ، موهبة الغناء وابتكار الألحان ، لقد قلّدت ألحان غيرها وحفظتها ، ما أُعجِبَتْ به لدَى إسحاق الموصلى ، وما بهرت به عند إبراهيم بن المهدى ، وغيرهما كثيرين انتقت مما لديهم ، والانتقاء والإعجاب يعتمدان بالطبع على الذوق والتذوق .. وهذا أيضاً ما ميّز « عريب » .

وكما كانت ملكة حفظ الأَشْعار مِنّة الله تعالى عليها ، وصارت بها راوية ، كذلك منّ الله جلّ وعلا عليها بشخصية مبهرة ، جعلتها تحافظ على شخصيتها كنعمة إلهية ، وتعتزّ بها وتعتدّ بأصلها كبرمكية ـ حقيقية أو مزعومة . كل هذا جعل مولاها المراكبى يتضاءل شخصه بجانبها ، ولا يلقى من الترحيب فى المجالس غير النزر اليسير . مما جعله يسكت عن النبش فى حقيقة أصلها أو يشكك فيه ، فقنع بحاضرها معه ، وبكونها جاريته أمام الجميع ، بل رضى بأكثرمن هذا وأمرّ .. أن يكون « كشخاناً » يغمض عن نظرات الإعجاب بها من الآخرين ، وعن مغامراتها مع غرمائه ، فلا يغار ولا يثور ، ويصفح مُجْبَراً بعد أن كلّتْ حيلته من معاقبتها . ويبدو أنه فى دخيلة نفسه قد اقتنع بأن تكون رفعة شأنه مستمدة من رفعة شأن غرمائه فى رفقتها .. طالما أن منهم القادة الخراسانيين ، كحاتم بين عدىّ ، ومحمد الخشن ، ومنهم الخلفاء العباسيين كالأمين والمأمون والمعتز والمعتصم والواثق ، ومن

الأمراء أبو عيسى بن الرشيد ، ومن الوزراء والشعراء صالح المنذرى وابن المدبّر فمن يكون إسماعيل المراكبى بجانب كل هؤلاء النجوم فى سماء« عريب » !! سماء عريب التى تألقت فيها بمواهبها المتعددة ..

موهبتها فى الشعر .. فهى صاحبة ديوان تغنت بأغلب ما فيه ، وإنْ بَدَتْ فيه الصنعة ! ها نحن نستقى منه :

لا غـرّنى بعـدك إنسـان ... فقـد بـدتْ لى منـك ألـوان .
وإن تغيّـرت فمـا حـيلتى؟ ... مـالى عـلى قلبـك سلطـان

ونعرف منه واقعة :

أصـاب الـوابـل الغـدقُ ... وصـاح النرجـس الغـرقُ
فهـات الكـأس مُترعـة ... كـأنّ حَـبَابهـا حـدقُ
تكـاد بنـور بهجتهـا ... حـواشى الكـاس تحـترقُ
فقـد غُـنىٌّ بنـان لنـا ... «جـفونٌ حـشوْها الأرقُ »

ولّما لمسَتْ شَغَفَ المأمون بمنافستها فى حبّه للجارية بوران ، أرادت أن تبدى له مباركتها لزواجه منها .. فقالت :

:انعمْ تخطّتْك صروف الرّدى ... بقـرب بـوران مـدى الدّهـر
درّة خـدْر لـم يزل نجمُـها ... بنجـم مأمـون الْعُـلا يجـرى
حتى استقرّ الملك فى حجرها ... بـورك فى ذلـك مـن حجـر

وقـد بلغت قـصائدها المغنّاة التى أوردها الأصـفـهـانى مـا يربو على الأربعمائة ، بمذاهب تنسب لها دون غيرها ، مما يؤكد رجحان كفّتها على

جميلة الحجازية ، ويفرد لها الصدارة فى عالم الغناء العربى بعصوره الثلاثة .. ما قبل الإسلام و الأموى و العباسى .

أما الموهبة الأخرى الطاغية لعريب الجارية .. فهى أَسْر أعلام الرجال .. ولم تكن موهبتها قائمة على حُسنها الباهر وحده .. وإلاّ لكان الأسر مشترطاً دوامه بدوام ذلك الحسن ، أو بالأدق دوام نضجها المرتبط بشبابها ، لكنها الموهبة المعتمدة على شخصيتها ذات الذكاء اللمّاح. ففى مرّات هربها من مولاها المراكبى مع عشاقها ، لم تكن لتعود إلاّ مسوقة إليه جبراً ، وتبلغ حدّة غضبته حدّ ضربها بالمقرعة ، فتتحداه أن يبيعها ، ويلين جانبه مستعطفاً قلبها، ومُقبّلاً رأسها ويديها ، ويهب لها آلاف الدراهم حتى تصفح وترضى بالإقامة لديه .. حتى ولوْ إلى حين .

وفى مرّه من هذه المرّات .. هربت مع القائد الشاب الشجاع محمد الخشن ، الذى كانت أحبتّه حُباً جَارِفاً ، وكان هربها بمصاحبة مظلومة .. تلك الجارية التى وضعها المراكبى وصيفة لها وعيناً عليها تراقبها .. ومن ثم كان هربهما معاً ضربة قاصمة لوليهما ، وكانت استمالة عريب لمظلومة قائمة على مشاركتها فى حب القائد الشاب !! علاقات غريبة أقرب إلى اللامعقول، ولكنها كانت متّسقة مع العصر الذى عِشْنَ فيه .. عصر سوء فهم الحبّ القائم على الجسد دون القلب ، حتى إن بعض الشعراء سجلوا هذا النوع من العلاقة .. فقال أحدهم :

لقد ظلموك يامظلوم حتى　　　أقاموك الرقيب على عريب
ولوْ أولوك إنصافاً وعدلاً　　　لما أخلوك أنت من الرقيب

أتنهيْــن المــريب عن المعاصى فكيف و أنت مــن شأن المريب
فإن يسترقبــوك عــلى عــريب فما رقبوك أنــت من القــلوب

لذلك فإن المراكبى حين أراد استرجاعهما ، لم يكن غريباً أن يرفض القائد الخشن إعادتهما ، أو إعادة عريب على وجه الخصوص . كما لم يكن غريباً على الرجل المكلوم أن يرفع شكواه إلى الخليفة المأمون ، ولم يكن أكثر غرابة ما سلكه أمير المؤمنين نحو عريب ، إذكان يترامى إلى سمعه أحاديث الرجال عنها وعن حسنها الطاغي ، كما سمع عن مغامراتها ، بل سمع أنها ليست غريبة على قصر الخلافة ، فقد استولى عليها من المراكبى أخوه الأمين ، واختلف معه على ثمنها الذى غالى فيه ، فحبسه بتهمة اختلاس أموال منذ أيام الرشيد ، وظل محبوساً حتى استشفع له الفضل بن الربيع و أفرج عنه .. على أن يقبض ثمن جاريته عريب .

لكن الأمين لم يهنأ بها طويلا ، إذ عاجلته المنيّة ومات مقتولاً ، فوجدتها عريب فرصة للعودة إلى جلسائها المعجبين ، وعشاقها الماضين ، بل فطنت إلى أنْه لا ملجأ يتوافر لها مع هؤلاء وهؤلاء مجتمعين إلاّ فى دار مولاها السابق المراكبى ، وحققت مآربها إلى أن هربت بوصيفتها مظلومة مع حبيبهما الخشن كما أسلفنا .

سمع المأمون بهذا كله ، فأرسل من يأتى له بالخشن مُقَيّداً، ويجلد بالسياط عرياناً إلى أن تظهر عريب ، فجاءت من فورها ممتطية حماراً ، وتصيح بعد أن كشفت عن وجهها : « لماذا تعاقبون فارسى ؟ عذّبونى بدلاً منه ، إننى لا أريد المراكبى ، فليبعنى إنْ كان حقاً يمتلكنى » .

ولمّا أهلّت بوجهها المليح على المأمون ، تهلّلتْ أساريره ، وشدّد من قبضته على مسنديْ سريره كمن يربط جسده إليه ، أو ليمنع ذراعيه عن فتحهما لها ، ولم يحسّ بشفتيه إلاّ وهما تفترّان بالعفو عن حبيبها وفك قيوده.

ولكن هل يرد« عريب» إليه أو إلى مولاها المراكبى ؟ صاح من داخله هاتف : كيف أُفرّط فى هذا الحسن الذى أبدع الله صنعه ودفعه إليّ !! أعوذ بالله أن أركل هذه النعمة التى منّ عليّ بها !! ولكن كيف السبيل إلى تبرير اقتنائها ؟!! لقد استعاض بقاضيين بدلاً من قاض واحد ، إلى أن حكم أحدهما ببيعها تحقيقاً لما أضمره المأمون فى نفسه ، وبادر هذا بدوره بتقديم خمسين ألف درهم إلى مولاها ، وكأنه استقلّ هذا الثمن على جاريته الحسناء .. فقال للمراكبى : لولا أننى حلفت ألاّ أشترى مملوكاً بأكثر من هذا لزدتك ، و لكننى سأدفع لك شيئاً تكسب فيه أضعاف ثمنها . وكان هذا الشيء خاتمين من الياقوت الأحمر لا يقلّ ثمنهما عن ألف دينار ، فضلاً عن خلعٍ أخرى عظيمة !!

وانصرف الرجل منقبض الصدر وهو يتمتم : كيف السبيل إلى الحياة بدونها ؟ اللهم ألْهِمْني الصبر . ولم يعش بعدها أكثر من أربعين يوماً بين العقل والجنون حتى مات .

وهكذا خلصتْ عريب للمأمون أميرالمؤمنين ، محققاً أمنيةغالية لديه بلغت به حدّ مساواتها بالخلافة كلها ، فملكت عليه أحاسيسه ، حتى إنه لم يكن يناديها إلاّ باسم المأمونية ، ويقبّل قدميها أحياناً فتهمس خجلة : « والله يا أمير المؤمنين لوْلا ما شرفهما الله بوضع فمك الكريم عليهما لقطعتهما !!

ولكن لله عليّ ألاّ أغسلهما لغير وضوء أو طهر إلاّ بماء الورد ما عشت . » .
وكانت عند كلمتها ، فظلتّ تفعل ذلك إلى آخر حياتها .

وكان المأمون يرى ذلك منها فيزداد حباً لها واعتزازاً بها ، و استجابة لرغباتها أو نزواتها ، لدرجة أنها ألحت يوما برغبتها فى دعوة فارسها الخشن لحضور مجلسها لدى الخليفة ، ونزل الخليفة المأمون عند رغبتها صاغراً !! فهل يمكن أن يكون مصدر ذلك السلوك الغريب ثقة زائدة بنفسه وبها أيضاً ، أو هو ضعفه أمام نزواتها ؟ !

لقد جرت حادثة صغيرة لهما دلّت على أن المأمون لم يكن ضعيفاً ، إذ كان من عادة عريب أن تبتدئ بالغناء فى مجلس أمير المؤمنين عندما يأذن لها ، فتشرع فى مداعبة عودها لحظات تستلهم ملكة الشعر وتشحذ قريحة التلحين، ثم تنطلق فى التغنّى بالمعنى الذى خطر لها . أما فى هذه المرة .. فقد اندفعت عريب تغنّى دون استئذان ، مما لفت نظر المأمون ، وقال لها : أمسكى ، فسكتت ، ثم التفت إلى الجالسين ، وسأل : مَنْ فيكم أومأ إلى عريب بِقُبْلَة ؟ والله لئن لم يصدُقْنى لأضربنّ عُنُقَه .

فنهض الخشن واقفاً ، وقال : أنا يا أمير المؤمنين ! والعفو أقرب للتقوى. ولم يكن ردّ فعل المأمون إلاّ أن قال : اجلس ، عَفَوْنا عنك ، وإيّاك أن تفعل هذا ثانية .

وجلس الفارس شاكراً ، وواصلت الجارية المتمكنة غناءها :

رمَىَ ضِرْعَ ناب فاستمـرّ بطَعْنَـة — كحاشية البـرْدِ اليمانى المُسَـهَّمِ

فمجالس الطرب أو اللهو لدى المأمون قد دارت بمفهوم الاتساع لكل

انطلاق من قيود الترمّت أو التكلُّف .. أوْ مما نسميه الآن بالرسميات فى حضرة عظيم من العظماء . والمهم أن تدور أحداث الجلسة بِنُدَمَائها وجواريها ، ويدور أيضاً غناؤها على الوجه الأكمل ، فلا يعكرّ صفوها تراجع عن مبدأ عقدها . وكأنَّ اتفاقاً غير مكتوب يسرى مفعوله بين الأحاسيس الفورية !! هكذا بَدَا فَهْمُ المأمون لمجالسه . وهكذا أيضاً وجد المبرّر للتطلّع إلى الأخريات مع الإبقاء على حظيته الأولى عريب .

وتطوّر الأمر بهما إلى تقديم العون له فى تحقيق نزواته ، فتكررله قولها له دائماً : « استبدل تَسْلُ . »

وكما عرفنا أن الوصول إلى هذا الوضع المتبادل بينهما ، لم يتمّ إلاّ بعد تحقّقه من أن عقابه لها بالحبس والضرب، والتهديد بالقتل والرقابة لم يُجْدِ معها شيئاً!! فكانت تنفّذ ما تهواه وتضمره مع عشاقها ، ولم يعد يضيره أن يكون واحداً منهم ، وكأن الحسّ قد تبلدّ أو مات .. ترُى هل يمكن أن نسمى هذا نوعاً من الثقة فى ذلك العصر ؟! لقد كان يقنع بإرضاء غروره أن تمثل بين يديه إذا ما اشتاق إليها !! وإن كان هذا النوع من العلاقات يجعل منه كشخانا آخر، لكنه فى سبيل تحقيق نزواتهما المتباعدة ، عليه أن يغمض عيناً عن شطحاتها.

وفى مرّة من هذه النزوات طلبها لتغنىّ ما ألّفه لها :

مــــاذا بقَـلْـبى مِـــنْ دوام الْخَـفْــــقِ
إذا رأيـــت لمـعـــــان البــــرق ؟
مـــن قِـــبَـلِ الأردن أو دمـشـــــق .

لأن مَـــن أهْـــوَى بـــذاكَ الأُفْـــق
فـارَقْـتُــــهُ وهـــو أعـــزُّ الخَـلْـــق
عـــلّى والـــزُّور غيـــر الحـــق
ذَاكَ الـــذى يـمـــلك مـــنّى رقـــىّ
ولـســتُ أبــغى مـا حـيـيـتُ عِتْـقى

وأدّتِ الغناء كعادتها على أحسن ما يكون الغناء ، وما إن فرغت حتى علت صيحات الاستحسان تريد المزيد ، لكنها شهقت شهقة ظنها كل واحد من جلساء المأمون أنها تعنيه بما فى صدرها من حب عميق ، لكنها بكل اعتداد وأنفة أسكتتهم وهى تتعجب : أنا أعشق أحداً منكم ؟! ثم وجّهت ناظريْها إلى المأمون لتكمل تعجبّها مؤكدة : «والله لم يكن فيهم واحد عنيته.»

وكما كانت لديها القُدرة على العشق وعلى إنكاره فى آن واحد ، كانت لديها القدرة أيضاً على الهجر وتبريره ، فهاهى تقول للمأمون نفسه بعد أيام هجر : « لولا مرارة الهجر ما عرفت حلاوة الوصل ، ومن ثم بدء الغضب حمد عاقبة الرضا » .

وهكذا ظلت حياة عريب فى قصر المأمون حتى مات ، وخلفه المعتصم الذى لم يشتر أحداً من مخلّفات سلفه غيرها !! ومن الغريب أنها كانت كالمعدن النفيس ، كلما قدم زادت قيمته ، أوْ هى كالخمر التى يعظم أثرها كلما طال العهد بها ..وهذا هو ما فعله الخليفة الجديد ، دفع مائة ألف درهم ثمناً لها .... ثم أعتقها ، ولسان حاله يؤكد .. « الخمرة المعتقة لا قبل لنا إلا بعتقها » .

ترى هل توقفّت حياة عريب عند هذا الحد ؟! أو بالأصح هل قنعت بحصولها على حريتها لتعيش على سجيّتها ، أو ترى ثابت وأنابت لتقضى بقية حياتها فى استغفار وتطهّر ؟! لقد كان من الصعب عليها أن تسلك هذا السبيل ، ولم تكن مرّات هربها السابقة إلاّ من أجل أن تركب قطار العمر الذى يؤدى بها إلى آخر المطاف .. لذا فإنها ظلّت على حالها ، لا تستقرّعلى حال . فقد وقع فى يد المعتصم رسالة بخط يدها إلى العباس بن المأمون وهو فى ميدان الحرب ببلاد الروم ، كتبت فيه :

« اقتل أنت العلج وهو فى ميدان الحرب معك ، حتى أقتل أنا الأعور الليلى ها هنا.

وسواء كانت تقصد بالعلج الخليفة المعتصم الذى ذهب ليحارب الروم ومعه ابن المأمون ، أم عنت بالأعور الليلى الواثق الذى بقى ببغداد يواصل سهر لياليه ، فإن التآمر بادٍ من خلال السطور .. إذ تريد إشعال فتنة تستعيد بها نفوذها من خلال ابن المأمون .

والأمر المثير للدهشة أن أحداً لم يمسّها بسوء .. فلا المعتصم أمر بقتلها ولا الواثق عاقبها بعد توليه الخلافة ، ويبدو أن لاعلّة لذلك إلاّ كثرة المتشفعين لها، المشفقين على أنوثتها العتيقة من أن تضيع ، الخائفين من خلوّ جلسات الغناء من الشّدْوِ الأصيل الآسر للقلوب والمشاعر ، وأولئك وهؤلاء كثيرون ، يعمل كُلُّ أمير مؤمنين لهم حساباً ، ويهمّه أن يراهم تحت ناظريه فى كل مناسبة وكل مجلس .

لهذا بقيت عريب على قيد الحياة ، تحيى مجالس الأنس والطرب ، تحيى أو ربما تنعش فى النفوس بقايا الأمل ، وتنتقل بجاريتيها تحفة وبدعة

بين بساتين الحب ، فتملأ صدرها المكتنز برحيق فوّاح هنا ، أو عبق كامن هناك . وتحوّلت من مجرّد حظية مغنية عاشقة ، إلى زعيم مدرسة فى الغناء ، يقصدها كل برغم صدّاح ، كما أكسبها ماضيها المتقلب خبرة بطباع خلفاء بنى العباس ، والرجال على وجه العموم .

لقد أمكنها ذلك كله من أن تدلى بآرائها ، وتنصح وتُوَجّه على مدى الستة والتسعين عاماً التى عاشتها ، لم توهنها كهولة ، ولم تهدّها شيخوخة ، وظلت متألقة إلى أن طالها الموت ، فتسابق القوم إلى تسجيل ما أتيح لكل منهم من حظوة لديها .. فاستحقت بحق لقب الحظية سيدّة القصور .. الشمطاء .

* * *

بِذْعَـــة

أمامنا فى كتاب الأصفهانى بِذْعتَان .. بدعة الكُبرى وبدعة الصغرى .. ومن نحن بصَدَدِها هى الكبرى ، تلك التى لا نقرأ عنها فى الأغانى فحسب ، وإنما تناثرت الكتابات فى تاريخ الطبرى ، ونشوار المحاضرة ، والديارات ، والمنتظم ، والكامل ، فى وفيات الأعيان .

فهى التى كانت مولاة المأمون وأهداها إلى سيدة القصور عريب ، لمَاَ توسّمه فيها من مستقبل فى الغناء إذا ما تعهدته بالصقل والتهذيب أستاذة مجيدة مثل عريب . وبالفعل صارت من أحسن أهل دهرها وَجهاً وغناءً ، فكانت تنشد شعراً لَـيِّناً يستطاب من مثلها .

ونظراً لما بلغته من ذيوع صيت مع مولاتها عريب ، عرض إسحاق بن أيوب الغالبى على صاحبتها أن يشتريها بمائة ألف دينار ، وكان الوسيط فى الصفقة أبا الحسن على بن يحيى المنجمّ ، الذى طلب لوساطته ثمناً قدّره بعشرين ألف دينار !! وكان موقف عريب غريباً فى هذا الأمر ؛ إذ كان مدعاة للإعجاب والدهشة فى آن واحد . فمن من أهل بغداد آن ذاك لا يريد المال عامة ، وما البال إذا كان مبلغاً ضخماً كهذا المعروض عليها ؟! . فضلاً عن ذلك ، صار وجود بدعة بجانب أستاذتها يزيدها نجاحاً على نجاحها ، وإذا ما خرجت من بين يديها وتبعت مولاها الجديد ، ربما تكون عاملاً من عوامل التعجيل بأفول نجمها وهى فى هذه السن المتقدمة ونافستها بشبابها . وهناك اعتبار آخر لم يلتفت إليه أحد غير عريب .. فلكل جارية سعرها حسب قدرها !!وما عرضه الغالبى من ثمن لتلميذتها الجارية ، يضؤل بجانبه ثمن عريب نفسها .

معادلات صعبة لا تعرف كيف توفقّ بين أطرافها ، لكنها حسمت الأمر بأن دعت بدعة وعرّفتها بالوسيط المنجّم ، ثم سألتها رأيها إن كانت تحبّ البيع وتختاره ؟ فأبدت الجارية امتعاضها وأبت أن تختار البيع ، وعلى الفور ردّت المال إلى الوسيط ، ولم تكتف بردّ المائة ألف دينار ، بل أعتقت بدعة لتصير حرّة لوقتها !

واستأنفت بدعة حياتها الحرّة فى الاتصال بقصور الخلفاء ، وكان المعتضد قد فرغ من محاربة المملوك محمد بن أبى الساج ، الذى كان يريد الاستقلال بالبلاد المتاخمة لبلاد الروم شمال الشام ، فانتصر عليه وعاد به أسيراً . فدخلت بدعة إلى المعتضد فى أول يوم جلس فيه بعد عودته منصوراً ،

فقال لها : « يا بدعة أما ترين الشيب كيف اشتعل فى لحيتى ورأسى ؟ » .

فقالت له : « يا سيدّى عمرّك الله أبداً حتى ترى وُلْدُ وَلدك قد شابوا ، فأنت فى الشيب أحسن من القمر ، » وفكّرت طويلاً حتى قالت :

ماضـــرّك الشيـــب شيئاً　　بـل زدت فيــه جـمالا
قـد هـذبــتْك اللّيـالـى　　وزدتَ فـــيه كمـــالا
فعــش لنـا فى ســرور　　وانْـعَـمْ بعيـشـك بـاَلاَ
تـزيــد فـى كـلّ يــوم　　وليـلـــة إقـــبـالا
فى نـعـمـــة و ســرور　　ودولــــة تـتـعـــالى

فوصلَها ذلك اليوم صِلَةَ سنيّة، وحمّل معها ثياباً كثيرة ، وطيبًا كثيراً ، مما زادها انفعالاً بكرمه ، فزادته بهذه الأبيات التى غنتها :

إن تكُنْ شِبْتَ يامـليـك البـرايا　　لأمــور عــانيْتها وخــطـوب
فلقــد زادك المشـيــب جــمالا　　والمشيب البادى كمال الأديـب
فَابْقَ أضعاف مامضى لك فى عزّ　　ومُلْك وخفض عيــش وطيب

وصارت منذ ذلك اليوم حظية المعتضد المفضلة لديه عندما يريد السماع، وعينه الساهرة كلما أراد الاستمتاع ، حتى عندما رمدت عنيها وزارها أحد رجال المعتضد يدعوها ، فوجدها تأكل باذنجاناً بورانياً ، فقال لها : « أتأكلين هذا وعينك شاكية ؟ »

هنا أسعفتها سرعة بديهتها بهذا الردّ الذّكيّ إذ قالت : « وإذا أحَبَّ الإنسان مَنْ يؤذيه هل يتركه ؟ » . ونهضت لتوّها تستْر عينها وتتوجه إلى قصر المعتضد . أفبعد هذا لا يزداد الخليفة تعلقاً بها وثقة فيها !

مُؤْنِسَــــة

هى منسوبة إلى الخليفة المأمون ، إذ أنها كانت حظية من حظاياه ذوات الدرجة الثالثة ، ولكنها أيضاً نالت ثقته بالتبعية ، فقد كان وزيره أحمد بن يوسف يعتنى ويوصى بها خيراً ، بل كان يقوم على خدمتها وتلبية حوائجها ـ ولاعجبَ.! ـ فقد كانت جارية رومية الأصل . والروميّات يتمتّعن ببياض البشرة ، وسواد الشعر المسترسل على قدّها الممشوق ، ولمّا أحسّت بإعجابه بها، صارت تُدل عليه ، ويبدو أنها وجدت فى ذلك الدلال وسيلة ناجعة لتحقيق مآربها ، فغالت فى ذلك .

وقد سلكت نفس السبيل من قبل مع المأمون فى بعض الأمور ،لكنه أنكر عليها ذلك ، وأراد أن يعاقبها ، فهجرها وهو ذاهب إلى مهجعه فى قصره الثانى ، حيث كان قائماً فى حىّ الشماسية عند أقصى طرف بغداد .

فبعثت برسالة مع خادمها نصرة إلى الوزير ، تسأله التلطّف فى إصلاح نيّة المأمون لها ، ولم يتراخ الوزير فى أداء المهمة التى كلفته إياها ، إذ ذهب لتوّه إلى الشماسية ، واستأذن على المأمون لإبلاغه رسالة مؤنسة ، فأَذنَ له ، وطفق ينشد عن لسانها هذه الأبيات :

قـد كان عتبْك مـرة مكتومـا ... فاليوم أصـبح ظاهراً معلوما

نال الأعـادى سـؤلهم لاهنُّوا ... لمـا رأوْنـا ظـاعنًا ومُقيـما

هبْنى أسأتُ فعَادةٌ لك أنْ تُرى ... مُتجـاوزاً متفضـلاً مظلوما

فهم المأمون الرسالة ، وقال للوزير : « كن الرسول بالرضا » . ثم أرسل الخادم ياسر فحملها إليه ، وصار يغدق عليها من أمواله ومقتنياته ، ويترك لها

حرّية التصرف فى هذه الهبات ، فتهدى منها صويحباتها من الجوارى ما يزيد روابط المحبّة والتواصل بعلم المأمون نفسه . من هذه الهدايا الشهيرة ما أعطته المتيّم جارية علىّ بن هشام – حين افتصدت – فكانت هديّتها مخنقة واسطتها درّة مثل بيضة العصفور ، وبنيقة قمصان ثمنها عشرة آلاف دينار ، وأربعة أحجار ياقوت أحمر ، وأربعة أحجار زمرد عن يمينها ويسارها بين خرائد ذهب، وباقى المخنقة بلح مُضَمَّخ بالعسل . ومن الطريف أن متيم استطعمت البلح واستطابته ، لكنها لم تُبْد فرَحاً ببقية الجواهر .

ومع كل هذا الإسراف المقارب للسَّفَه ،الذى كانت عليه مؤنسة ، فإنها ظلّت حائزة على ثقة أمير المؤمنين المأمون ورضاه .

فَضْل

(الشاعرة اليماميّة)

هى نوع من الجوارى المثقفات .. إذا جاز استخدام كلمة الثقافة فى هذا المجال . فهى قد امتلكها الخليفة المتوكل على الله ، بعد أن أهداها له محمد بن الفرج الرخجى . وكانت نبتَةُ الشعر قد كمنت فيها ، مثلما كمن فيها شيطان المجون ، لذلك فإنها بزّت سائر نساء زمانها فى المساجلات والمعارضات والإجازات . فضلاً عن أن سُمرتها الخمرية كانت تميّزها عن سائر الجوارى الشاهقات البياض ، مما أكسبها مذاقاً متفرداً .

وانطلق بها العنان فى لقاءاتها وعلاقاتها ، فضلاً عن أن سرعة بديهتها النابعة من ثقتها الزائدة بمواهبها .. جعلت الثقة تتوافر بينها وبين الخليفة المتوكل . فكانت تجلس في مجلسه على كرسيّ تعارض الشعراء بحضرته ، وفى واحدة من هذه الجلسات ، كان من بين الجالسين الشاعر أبو دُلف القاسم بن عيسى العِجْلىّ فألقى عليها هذين البيتين :

قالوا عشقْت صغيرةً فأجبْتُهم ... أشْهَى المْطِيّ إلىّ مالم يُركَب

كم بين حبَّة لؤلؤ مثقوبة ... لُبستَ وحبّة لؤلؤ لم تثقب

فقالت فضل مجيبة :

إن المطيّة لايَلَذُّ رُكوبُها ... حتى تُذلّل بالزمام وتُرْكبا

والحبُّ ليس بنافع أربابه ... حتى يؤلّف بالنظام ويُثْقَبا

واستغرق الخليفة فى الضحك مما أفحمت به فضل الشاعر العجلى ، بإجابة تنم عن سرعة البديهة والذكاء اللماح .

والحق يقال .. إن المتوكل كان شديد الولع بها وبفصاحتها منذ أول يوم اقتناها فيه . فقد سألها : « أشاعرة أنت ؟ » .

قالت : « كذا يزعم من باعنى ومن اشترانى . »

إنها ذكرت طَرَفَيِ الصفقة التى انتهت بالمشترى إلى إهدائها للخليفة ، لذلك فلم تذكره كمهدًى إليه ، لذلك ضحك يومها وقال « : أنشدينا شيئاً من شعرك . »

فأنشدت :

استقبل المُـلْك إمـامُ الهُدَى　　عــام ثــلاث وثـلاثـيـنا
خـلافة أفضـت إلى جـعفر　　وهـو ابن سبـع بعـد عشرينا
إنـا لنرجــو يا إمـام الهـدى　　أن تمـلك المُــلكْ ثمـانينا
لا قـدّس اللـه امْـرَأَ لم يقُلْ　　عنـد دعــاء لــك آمـنيـا

وكان أول تعبير عن إعجابه بما أفصحت ، أن أمر لها بخمسين ألف درهم ، وأظن أن كثيراً من شعراء عصرها ، كانوا يتمنّون مثل هذا التقدير السامى والغالى أيضاً .وفى يوم آخر أراد المتوكل أن يستحثّ الشاعر عليَّ بنَ الجهم على إقامة محاورة بينه وبين جاريته فضل الشاعرة . فقال له : « قل بيتاً وقل لفضل الشاعرة تجُزه. » فقال عليّ : « أجيزى يافضل » :

لاذ بهـــا يشـــتكى إليهـــا　　فــلم يجـد عنـدها مـلاذا

فأطرقت لحظة ثم قالت :

ولـم يـزل ضـــارعاً إليهـــا　　تهـطـــــل أجفانـــه رذاذا
فعــاتبـتــه فـــزاد عشقـــًا　　فمـات وجْـداً فــكان ماذا

فَطَرِبَ المتوكل وقال :« أحسنت وحياتي يا فضل .» وأمَرَ لها بألفيْ درهم

وفى نوع آخر من أنواع الإجازة الأكثر صعوبة ، ما دار بينها و بين الشاعر العالم و رئيس ديوان الرسائل سعيد بن حميد إذ قال : أجيزى :

مـنْ لمحـبٍّ أحـبَّ فـى صـــغره ؟

فقالت غير متوقفة — فصار أحدوثة على كِبَره .

فقال : — من نظر شفَّة فأرّقَه .

فقالت : — فكانت مبدأ هواه من نظرهْ

وأطرقت هنيهة ثم قالت — لولا الأماني لمات من كمده
مَرُّ الليالي يزيدُ في فكره .
ليس له مُسعِدٌ يساعدُه
بالليل في طوله وفي قِصَرِه

وقد ظن البعض أن سعيد بن حميد هو الذى يكتب لفضل رسائلها ، ثم تُجرى هى بعض التعديلات الطفيفة فيها ، وماكان ظنهم إلاّ لاتخاذها منحاه فى الكلام وتشابه أسلوبيهما .

وقد سألوه فى ذلك ، فقال ضاحكا : « ليتها تسلَم منّى ، لا آخذ كلامها ورسائلها ، والله لو أخذ أفضل الكتّاب وكبراؤهم وأماثلهم عنها لما استغْنوْا عن ذلك » .

وذات ليلة خرج بعض الهاشميين من بيت أخ لهم ، فرأوا امرأة ذات لباس وجمال، وحولها نسوة قد حففن بها ، وهى وسطهن ، فقال أحد الهاشميين :

« إن أخا الظلماء مُسْترابُ »

وأسمع النسوة فأجابته مَنْ حَفَفْنَ بها فى أسْرع من نَفَس :

« إلاّ محبّاً شاقه الأحباب »

ولمّا سألوا عن تلك المرأة ، فإذا هى فضل الشاعرة . ولم تقتصر أشعار فضل على المساجلات والإجازات ، وإنما لها شعر مرسل ، فهاهى ذى تقول فى السَّحَرَ :

قد بدا شبْهــُـك يــا مــوْ لاى يحــدو بالــظــلام
فانتــبه نَقْــضِ لُبــانــا ت اغــتــباق والــتــئام
قبــل أن تفضــحنا عــوْ دة أرواح الـــنــيـــام

وهاهى ذى تنشد لنفسها فى الصبر قائلة :

الصبر ينقص والبلاء يزيد والـدار دانية وأنت بعــيد
أشكوك أم أشكو إليك فإنه لا يستطيع سواهما المجهود

فلا نعجب بعدئذ إذا ما ذكرها ابن الجراح فى كتابه (الورقة فى أخبار الشعراء المحدثين) ، حيث قال : « فضل الشاعرة العبديّة مولاة المتوكل أشعر امرأة كانت فى هذا العصر» .

وماتت فضل الشاعرة بعد أن ملأت دنياها حركة وحيوية فى مجالسها هى والمتوكل سنة (سبع وخمسين ومائتين للهجرة) وبعد أن حازت ثقة الخليفة المتوكل .. ثقة بمقدرتها الأدبية الباهرة .

مَحْبُوبـَـــــــــة

هذه واحدة من الجوارى اللائى ضُرِبَ بهن المثل فى الوفاء بالعهد ، وحفظ الوداد لسيّدها المتوكل بعد أن مات وتركها ، وهى مُهداة إليه ضمن

أربعمائة جارية من عبد الله بن طاهر ، كلّهن كنّ حظايا ، وبعضهن يُجْدنَ العزفَ على آلات الموسيقا والغناء ، والبعض الآخر لازلن سواذج لا يُجدن شيئاً..

تقدمتهن جميعاً محبوبة لثلاث صفات فيها :

أولها : موهبة الشعر .. فهى شاعرة مطبوعة ، وعذبة الصوت .

ثانيها : اعتدادها بشخصيتها مع التزامها بعدم الغرور .

ثالثها : الوفاء للذكرى ، وصراحتها فى التعبير عما فى مكنونها ، فضلاً عن ملاحة وجهها . فلاغْرو أن يكون اسمها على مسمىّ .

ومن شواهد القول على صدق هذه الصفات المميَّزة .. أنها ذات يوم .. تَلَقَّفَتْ تفاحة مضمّخة بالمسك من المتوكل وهو يشرب فى أحد مجالسه ، فقبّلت التفاحة وانسحبت من حضرته ، ثم جاءته جارية لها تحمل رقعة منها ، فقرأها ، وضحك ، ثم أعطاها للجالسين ليقرأها كُلٌّ منهم . وكان ما من أحد قرأها إلاّ استملْحها ، فأمر الخليفة جاريتيه عريب وشارية لتصنعا فى أبيات الرقعة لحنين ، ثم غنتاها بقية اليوم :

ياطيبَ تُفاّحة خَلَوتُ بهـا — تُشْعلُ نار الهَوى على كبـدى
أبكى إليـها فأشتـكي دَنفِي — ومـا أُلاقى مـن شـدة الكَمَـد
لو أن تفاحة بكـتْ لبَكـتْ — مِـنْ رحْـمَتى هذى التى بيـدى
إنْ كنت لا تعلمـين مالَقيت — نفسى فَمصْداقُ ذاك فى جسدى
فإن تأمّـلْتـه علـمـت بأنْ — ليـس لخلقْ عـليه من جـلَد .

وذات يوم أسرّ المتوكّل إلى الشاعر عليّ بن الجهم بأن جاريته الشاعرةالمسمّاة بنقيض حسنها « قبيحة » قد كتبت اسم مولاها على خدّها بالمسك ، وأردف المتوكل قائلاً « والله مارأيت أحسن من سواد ذلك المسك على بياض ذلك الخدّ » . وطلب من ابن الجهم أن يقول فى هذا شعراً ، وكانت محبوبة حاضرة من وراء السّتار تسمع الكلام فإلى أن دعى لعليّ بإحضار الدواة والدّرج ، وأخذ يفكرّ ، قالت هى على البديهة :

وكاتبةٍ بالمسك فى الخد جَعفَرا	بنفسى مخطُّ المسك من حيث أثراَ.
لئن كتبتْ فى الخط سطراً بكفها	لقد أودعتْ قلبى من الحبّ أُسطرا
فيا منْ لمملوكٍ لمِلكٍ يمينه	مُطيع له فيما أسَرَّ وأظهرَا
ويا مَنْ مناها فى السِّريرة جعفر	سقَى اللّه من سُقياَ ثناياكِ جَعْفَرَا

وظل ابن الجهم واجماً لا ينطق بحرف ، فأمر المتوكل عريب لتغنى هذا الشعر. وكما يحدث بين المحبين من وصال وصد ، حدث بين المتوكل وبين حظيته المحبوبة ، ثم اشتدّ على المتوكلّ بُعدها عنه بعد أن غاضبها ، ورأى فى النوم أنها قد صالحته ، فدعا بخادم له وقال : اذهب واعرف لى خبرها وأىّ شىء تصنع ؟ ورجع الخادم فأعلمه أنها جالسة تغنىّ ، فغلاَ الدم فى عروقه، إذ كيف تغنىّ وهو عليها غضبان ، ثم التفت إلى نديمه جعفر بن قدامة ناهضاً ، وهو يقول له : قم معى نسمع بأى شىء تغنى

ولمّا انتهيا إلى حجرتها ، سمعاها تغنى :

أدورُ فى القصر لا أَرَى أحداً	أشكو إليه ولا يُكَلمنى
حتى كأنىّ ركبت معصيةً	ليستْ لها توبةٌ تُخَلّصنى
فهل لنا شافع إلى ملكٍ	قد زارنى فى الكَرَى فصالحنى
حتى إذا ما الصباح لاح لنا	عاد إلى هجره فصار منى

فطرب المتوكل ، وأحسَّت به محبوبة ، فخرجت إليه ، وأعلمته أنها رأته فى النوم وقد جاءها فصالحها ، فقالت هذا الشعر وغنّت به .

حتى بعد أن مات المتوكل مقتولاً ، تفرقت جواريه بين وصيف وآخر ، وصارت من بين جوارى أحدهم . وذات يوم أمر هذا الوصيف جواريه أن يحضرن مكتسيات بالثياب الفاخرة الملوّنة والحلىّ ، وأن يتزيَّنّ ويتعطرن، وجئن جميعاً ماثلات للأمر فى أكمل زينة ما عدا محبوبة ، فقد دخلت بلا كحل يحددّ عينيها ، فبدتا باهتتين ، وعليها ثوب أبيض عادى ، مما ثبَّتَ الحزن على سحنتها ، فغنّت الجوارى وطربنْ وشربنْ وطرب الوصيف كذلك ثم قال لمحبوبة ،غَنّ ياجارية ، فأمسكت العود وتحاملت تغنى وكانت الدموع تسيل من مقلتيها :

أىُّ عيش يطيبُ لى	لا أرَى فيه جَعْفَرا
ملكا قد رأته عَيْـ	ـنى قتيلاً مُعفَّرا
كلُّ مَنْ كانَ ذا سَقا	م وحُزْن فَقَدْ بَرَا
غير محبوبةَ التى	لتوارى وتقبرا
إنَّ مَوْتَ الحزين أطْ	يَبُ من أن يُعَمَّرا

فاشتدّ ذلك على الوصيف ، وهمَّ بقتلها ، لكن « بُغا » الكبير كان حاضراً هذا العرض الباهر من الجواهر والجوارى ، فاستوهب محبوبة منه ، فوهبها له الوصيف ، وأعتقها بغاَ وترك لها حرّية الاختيار للمكان الذى تقيم فيه ، فخرجت إلى بغداد ، حيث أحبت أن تقضى بقية عمرها ، وأهملت

نفسها حتى خملت وماتت بالقهر . وهنا لايسعنا إلاّ نعجب بوفائها ، ونلقى بالقلم جانباً متسائلين : لماذا تقاعست محبوبة هذه المرة عن مواصلة فوزها بالحظوة عند المعتمد على الله -الخليفة الجديد ؟ إن التقلبات التى لاحقت قصر الخلافة ، وجور الجماعات المتناحرة على هيبة الخليفة ، ربما خففت من طموح جارية حظية كمحبوبة ، فآثرت الانزواء بعيداً عن الأضواء المتخافتة.

ومع كل الاحتمالات الواردة ، يبقى شىء واحد يلحّ على طرح السؤال..

إن محبوبة لم تكن حدها التى نالت الخطوة لدى المتوكل ، بل لها شريكات ومنافسات كثيرات ، ومن ثم ندهش من انفرادها بإخمال نفسها وإهمال زينتها إلى أن ماتت !! من الجائز أن يكون وراء ذلك الشعور الباطنى بدنوّ الأجل ، والرغبة و التطهر ، إننا لا نريد أن نفترض سوء النية فى ذكراها ، وما علينا إلاّ أن نذكر محاسنها ميتة ، بعد أن حازت الثقة حية لدى خليفة لا يشبع ولا يقنع بالقليل من الحظايا.

ناشِبُ وفرَيدَة

المتوكليّتـــــــــان

الأولى من المذكورات بالحذق وجودة الصنعة ، والشهادة لها لم تصدر بإجادتها من الخليفة المتوكل ، كمستمع معجب ، وإنما شهد لها بهذه الجودة خبراء فى الصنعة ، ذوو صيت ذائع فى دنيا الألحان والطرب ، كإبراهيم بن المهدى الذى كان يجلس مصغيا لها وهى تغنى باهتمام وشغف!

أنــت امـــرؤ متـــجنٌّ ولَــسْـــتَ بالغــضـــبــان
هَــبْــنــى أســأتُ فهــلاّ مَـــنَــنْــتَ بــالْغُــفَــران

أماّ الثانية فقد كانت مغنّية مجتهدة ، اشتهرت بأدائها لحناً لأبى العتاهية ، لإبداعها فيه ، حتى صار كل إنسان يردده ، وكأنهم ينشدونه جميعاً :

ياويــحْ قَــلْبى لـو انّهُ أقــصر ما كان عيشى كما أرى أكــدرْ
فمن غَذيرى مِمّنْ كَلَفْتُ به يشْهــد قــلبى بأنّــهُ يَسْحــرْ
ياربُّ يومٍ رأيتــنىُ كَلَــفــاً أخــوض فى اللهو مُسْبَلَ المئــزر
بين نَدَامَى تَحُثُّ كأْسَــهُــمُ عــلَيْهِمْ كَفُّ شــادنٍ أحْــوَرْ

تساوت الاثنتان فى المقدرة على الغناء ودقة أداء الألحان ، إلاّ أن فريدة قد انفردت بلقب زوجة المتوكل ، فلماذا نالت وحدها هذا الشرف ؟ أو بالأصح لماذا فازت بكل هذه الحظوة ، فاقترن اسمها باسم المتوكل ؟

نعم تتدخل المشيئة فى توزيع الحظوظ والأقدار ، لكنّ لكل جارية ميزة أو سبباً تستعين به على الاغتراف من الحظ السعيد ، والسرّ فى هذا هو ماضيها ولا أقول أصلها أوأرومتها . فلقد كانت حظية عند الخليفة السابق الواثق بالله، قربها منه ، مع أنها لم تكن جاريته أو ملكاً له ، وإنما كانت مهداة له من المغنى الشهير عمرو بن بانة . فلما توفّى الخليفة الواثق ، وتولى بعده أخوه المتوكل ، خلبت لبهّ ــ وللناس فيما يعشقون مذاهب ــ فضلاً عن أن فريدة قد أفهمته من طرف خَفِىٍّ أن الواثق رحمه الله كاد أن يعلن زواجه منها ، لولا

أن المنيّة عاجلته . فزاد المتوكّل على أخيه ثقَة في صدق قولها ، وأعلن زواجه منها ليشبع في صدره لواعج قلبه النابض بحبها .

وبذلك برّتْ فريدة صاحبتها ناشب في حظوتها لدى المتوكّل ، وتقدّمت على صويحباتها جميعاً بتلك الكذبة البيضاء .

نَبْتُ وخلافَـة

الجارية التي تكون متمتعة بموهبة من المواهب ، لابدّ أن يبدو ملمح من ملامحها في سلوك الجارية ، أو حتى في صمتها أو استراحتها عن التحدث لحظة .

ونبْت كانت من هؤلاء اللائي تفجّرت مواهبهن باكرة ، في تحدّثها وفي صمتها على السواء ، فلقد كان مولاها مخنثاً يدعى مخفرانة ، لذلك فإن حسن وجهها وعذوبة صوتها ، لم يكونا ليعودا عليها بفائدة من هذا المولى العاجز ، ولذلك أيضاً كانت لا تجد متنفساً لها ولموهبتها الفياضة إلاّ لدى ضيوفه القلائل .

وذات مرة زاره أحمد بن أبي طاهر ، فدخل على نبْتَ ، وقال لها :

قد قُلْتُ مِصراعاً فأجيزيه..

فقالت : قل .

قلت : يا نبْتُ حُسنُكِ يعشى بَهْجَةَ القمر .

قالت : قد كاد حُسْنك أن يبتزني بَصَرى .

فتوقّفتُ أُفكر ، فسبقتنى وقالت :

وطيبُ نشَرْكِ مثلَ المسْكِ قد نَسَمْت
ريـاًّ الرِّياض عليه فى دُجى السَّحَرِ

فزادت فكرتى وبادرتنى فقالت :

فهل لنا فيكَ حَظٌّ من مواصلةٍ أوْ لا فَإِنِّىَ راضٍ منك بالنظرِ

وقام عنها ابن أبى طاهر خجلاً .

وشاءت الأقدار أن يعرضها مولاها المخنّث على الخليفة المعتمد على الله ، فامتحنها فى الغناء والكتابة ، ورضى بما ظهر له منها ، ثم التفت لابن حمدون الشاعر وقال : قارضها

فقال ابن حمدون : وهَبْتُ نفسي للهوَى
فقالت بدون توقف : فجَارَ لما أنْ مَلكْ
قال : فصرتُ عبداً خاضعاً
فقالت : يَسْلكُ بى حيثُ سَلَكْ

فمال المعتمد عاى ابن يحيى المنجم يستشيره بكم يشتربها ، ونقد مخفرانة ثلاثين ألف درهم . وصارت بذلك جارية من جواريه الحظايا ، لكنها لم ترق إلى الزواج به . أما التى فازت بهذا الشرف فضلا عن هذه الثقة ، فهى جارية أخرى فاقتها جمالا وقلت عنها موهبة .. تدعى خلاّفة ، وواضح من اسمها أو صفتها أنها ولودٌ .. إذ أنجبت ثلاث إناث وصبيًا واحداً لكنه لم يتولّ الخلافة ، ولم يكن ولياً لعهد أبيه ، لكن أصل أمه لم يكن هو السبب فى حرمانه من ذلك ، بدليل أن خليفة آخر ، هو الموفق بالله ، تزوج من جاريته

ضرار أو خفير كما كانت تسمّى من قبل ، فتزوجها وغيرّ اسمها ، وأعلن على الملأ اقترانه بها ، لما كان لها من أعمال البرّ ما كثر ، ولما كان لها من حظوة لديه تأسر قلوب البشر وتلين الحجر ، فأنجب منها الولد ، ليصير بعدئذ هو الخليفة المعتضد .

والملاحظ أن الموفق بالله نفسه لم يعش حتى يهنأ برؤية ابنه المعتضد من زوجته ضرار ، حتى ضرار نفسها .. ماتت قبل أن يتولى ابنها الخلافة بستة أيام، نعم أفلحت في اكتساب ثقة كل الأطراف لكي تحتفظ لابنها بأحقيته في ولاية العهد والخلافة بعدئذ .

خَمْـــرَة

إذا لم يكن للجارية دخل فى اختيار اسم ، فمن يكون هذا الذى أطلقه عليها ؟ هل هو الخليفة المعتضد بالله حين اقتناها منذ صباها ، أو هو جعفر ابنه الذى صار خليفة بعده باسم المقتدر بالله ؟

إن صلة هذه الجارية بالخليفتين تدفعنا إلى الإلحاح فى هذا السؤال .. فهى قد جىء بها سبيا رومية ، ولم يتاجر بها نخاس أو تاجر رقيق . ومما لاشك فيه أن اسمها لم يكن كذلك فى طفولتها ، كما أنه ليس فى لغة الروم اسم اذا ما حُرِّف نطقه فى العربية فصار هكذا « خَمْرَة » !! وإنما هى سُمِّيتْ به وكانت لاتزال فى الطَّوْر الذى جاءت به بين الصغر والصِّبَا ، وهى المرحلة التى شغلها الأب المعتضد بالله . تُرَى : ألمْ يجد لها اسما مطابقاً لما دهاه من نشوة حين رآها ، وما توقع لها من نضج فى ميعة الصبا ، فأصبحت أول كلمة يعبرّ عن مكنونه تجاهها هى خمرة ، أم تُرى هو الابن الذى كان أقلّ تُقىً من

أبيه ، ومن ثم أكثر كشفاً عن وجهه فى انتقاء هذا الاسم لَحظِيَّته وزوجته ، وأمّ ابنه منها فيما بعد ، الذى سمّاه عيسى !!؟ ولو كان الأمر كذلك ، لكنا عرفنا اسمها السابق الذى عاشت به فى كنف المعتضد بالله ، وهذا ما يرجح الاستقرار على هذا الاسم منذ العهد الذى استحضرت فيه ، خصوصاً أننا قرأنا الكثير عن كثرة برّها وعطائها للفقراء والمحتاجين وأهل الاستحقاق ، وذوى الحاجات ، وأهل البيوتات .

فإذا أضفنا معلومة أن مثل هذه المكرمات عادة ما تكون فى سنّ ليست بالمبكّرة ، فإن الأصح أن يكون اسم خمرة هذا قد أطلق عليها منذ استقدمها أيام الخليفة المعتضد.

لقد حكت خمرة لابنها عيسى قائلة : « استدعى المقتدر بالجواهر ، فاختار منها مائة حبّة ، منها خمسون «مُدَحْرَج » ونظمها سُبحَةً يسبِّحُ بها ، فَعُرِضَتْ على الجوهريين ، فقوّموا كل واحدة منها بألف دينار وأكثر ، فكان إذا أراد أن يسبح استدعى بها ، ثم يردهّا إلىّ فأعلّقها فى الخزانة فى خريطة » ! نخلص من هذا أن خمرة كانت محلّ ثقة زوجها الخليفة فلم يأتمن أحداً غيرها على سبحته الثمنية ، ولو أن هناك علامة تعجب أمام هذه الحكاية ، فعادة ما تكون حبات السّبحة ثلاثاً وثلاثين حبّة ، والكبيرة من السبّح عدد حباتها تسع وتسعون حبة ، فمن أين جاء هذا العدد الخمسون ؟ ربما يكون الخبر المنقوص هو أن بقية حبّاب السبّجة الكبيرة ليست من تلك الجواهر

الثمينة .. تبقى الحبّة المائة زائدة على حباتها ، ترى هل هى للخداع أو التمويه ، أو أنها المعادلة التى تساوى بين الطيّب والخبيث من حبات المسبحة؟ لا نستطيع أن نصل إلى تأكيد لأحد هذه الافتراضات ، لكن ما أجمعت عليه مصادر الخبر هو نهاية هذه المسبحة .

عندما قتل المقتدر ووقع النهب أخذت فى جُملة ما أُخذَ . ولعلّ الذى أخذها لايدرى ماهى ، وبالطبع لا يحدث هذا إلاّ إذا كانت حبّات السبحة مختلطاً ثمينها بغَثّها ، خصوصاً أن حالة النهب التى اجتاحت البلاد لم تَدَعْ فُرصة للناهب أو الناهبين أن ينتقوا ويفحصوا لكى ينتقوا .

على كل حال ، كل أمر مآله الزوال ، فقد ماتت خَمْرَة ودُفنت بالتُرب الشريفة مع ابنها عيسى بالرُّصَافة .. رحم الله الجميع وغفر لهم ذنوبهم

شَاهَان

هى جارية الخليفة العباسى المستنصر بالله . كانت رومية الأصل ، فى حوزة ختا خاتون بنت الأمير سُنقر الطويل الناصرى ، والتى كان الأمير جمال الدين بكْلكَ الناصرى قد تزوّجها و قد اعتنت ختا خاتون بتأديب شاهان وتربيتها ، و شملتها بعنايتها ، فظهرت عليها آثار السعادة و مخايل النجابة ، فلما بويع المستنصر بالله بالخلافة ، أهدتها له فى جملة جوارٍ ، ففازت من بينهن بالحظوة لديه ، وتقدّمت وصارت لها المنزلة الرفيعة ، والمكانة العالية ، والمقام الذى لا يصل إليه غيرها من القرب والاختصاص ، وصار لها باب مفرد ، وديوان ، ووكلاء ، ونوّاب ، وخدم ، وحاشية جميلة ، وأُشْرِكَت

فى الأموال تتصرف فيها على حسب إيثارها و اختيارها ، فتأمر وتنهى بأتم أمر وأنفذ حكم .

وقد تحدّث بعض نواب ديوانها أنها عملت حسبة شهرية لما أطلق فيه إلى الباعة الصغار والزراكشة والصاغة والتجار والبزازين والجوهريين و أرباب الصنائع على اختلاف صنائعهم ـ مائة ألف دينار ، وخمسة آلاف وثلاثمائة وستين ديناراً ونيّفاً.

وكانت كثيرة البرّ والمعروف والتفقد للفقراء والأرامل والأيتام ، دائمة الصدقات ، ميّالة إلى الخير ، راغبة فى فعله ، محبة لأهله .

ولّما توفّى زوجها الخليفة المستنصر بالله ، وبويع ولده المستعصم بالله ، أجراها على عادتها فى الإكرام ، ووفّر نصيبها من التبجيل والإعظام ، ونقلها بجواريها وخدمها ، وأتباعها وحشمها ، إلى الدار التى نشأت بها عند سيّدتها ختا خاتون ، المعروفة بدار بنفشا ، حيث أضيف إليها ما كان يجاورها من الخانات والدور ، وأنشئ فيها بستان . ونقل إليها من كل أنواع الأشجار ، فصار يانع الثمار ، بديع الأزهار . وأجريت إليه المياه من الدواليب التى تسقى بساتين الدار العزيزة . ويقابل هذه الدار بستان فاخر ، وشجر مثمر زاهر ، ومنظر عجيب باهر .. فالجالس فى مناظر هذه الدار يشرف على دجلة وجسرها ، ليتمتع بنزهة للعيون ، وفرحة للقلب المحزون ، ورتّب لها البوّابون والفرّاشون والمشّائية . كما أقرّت على جميع ما كان يصل إليها فى الأيام المستنصرية من المخزن المعمور الراتب والجارى ، وجعل فى بابها عدة ملازم طول النهار ، تنفيذاً لما تأمر به ، وتسجيلاً لما يجرى على يد الخدم المختصّين بخدمتها .

وقد يتساءل المرء فى عصرنا الحديث : لماذا كل هذا التمييز فى التكريم؟ لقد لقيت أقصى درجاته من الزوج و ابن الزوج الخليفتين ، وهذا التكريم لا يتم إلاّ إذا كان هناك احترام للمكرّم ، وهذه الجارية المكرّمة لم تكن تلقى هذا الاحترام إلا لتوافر الثقة فى سلوكها و أخلاقياتها عامة ، لذلك فإن جمالها لم يكن هو وحده الدافع إلى ذلك ، لأن كثيرات من الروميات كُنَّ يشتركْنَ معها فى هذه المواصفات الجمالية التى لقيت استحساناً من خلفاء بنى العباس عامة ، والمستنصر بالله ثم المستعصم بالله خاصة ، لذلك فإن ما ميّزها لديهما لم يكن ميزة حِسّيّةً بقدر ما كانت صفاتها المعنوية هى الأكثر دفعاً لهذا الاحترام وهذا التكريم .

وهذا فى حدّ ذاته تطوّر فى الذوق العباسى للمرأة عامة ، وللجارية خاصة . إذا ما أضفنا إلى ذلك ما اتصف به عهد المستنضر بالله من ازدهار للحكم ، واتساع فى فتوحات الدولة ، واستقامة الحاكم ، مع حرصه على السهر على حالة الرعّية اقتصاديًا واجتماعياً .. وأمْنَياً كذلك أى أنها كانت سنوات مضيئة بين سنين عديدة من الفساد والانهيارات المتتالية فى القيم السلوكية والأدبية .

ومما لاشك فيه أن الحظية شاهان كانت نبْتاً طيباً فى تُربة صلح حالها، برغم مجيئها من بيئة رومية مغلوبة على أمرها فى التساهل فى حفظ بناتها أو إناثها عامة ، وكذلك غلمانها .

دَوْلَـــة

لا ندهش لهذا الاسم أيضاً ، فلقد كانت اسماً على مُسَمّىً ، إذ أنها على الرغم من كونها جارية للخليفة عبد الله بن المعتزّ بالله ، فإنها امتلكت

أكثر من ناصية ، تؤثر من خلالها في العقول ، فضلاً عن تأثيرها في الأحاسيس والمشاعر .

من هذه النواصي التي أشرفت منها على رجالات عهدها ـ أعني عهد مولاها عبد الله بن المعتز بالله ـ ناصية البيان .

وإذا ما صدّقنا أنها سلبت ألباب بني عهد زوجها ، بتأثير منه ومن أشعاره، فكيف ظلت حائزة على ثقة الجامعين لأشعار مولاها الخليفة ؟ لابدّ أنها كانت أهلاً للثقة وذات مقدرة فائقة، فقد روى عنها أبو بكر العلاّف الشيرازي النحوي . وكان إماماً فاضلاً ، وشاعراً بارعاً – كما ورد عنه في أنساب السّمعاني ومعجم الأدباء ، وسمع منه الحاكم أبو عبد الله الحافظ ، وذكره في تاريخ نيسابور بقوله : « العلامة أبو بكر الفارسي المعروف بابن العلاّف، وكان من أفراد الزمان في عصره في شتى أنواع العلوم . (في القرن الرابع ، حيث توفي سنة ٣٧٧هـ عن تسعين عاماً ونيّف)

كذلك روى عنها أبوالقاسم الأزَجي .. (وكان محدّثاً ثقة ،يكتمل اسمه بيحيى بن أسعد بن بوش الخباز ، سمع الكثير بإفادة خاله علي بن أسعد الخباز ، وبورك في عمره ، واحتيج إليه ، وحدّث نحواً من أربعين سنة)

وكذلك نقل عنها أبو الرجاء أحمد بن محمد الكسائي ، وأبو نصر عبد الكريم بن محمد الشيرازي ، والقاضي أبو الفضل زيد بن علي الرازي ، وأبو علي الحسين بن أبيَ القاسم الفاشاني .كل هؤلاء وغيرهم نالوا ثقتها ، وردّدوا ما نقلته عن ابن المعتزّ ، فصارت راويته الحافظة لأكثر من مائة وخمسين بيتاً .. منها :

وقفتُ على الفُراتِ وليس تجرى ... سَفائنُه لنُقْصَانِ الفُـــراتِ
فلماّ أنْ ذكرتكِ فاض دَمْعى ... فأجْرَاهُنّ جَرْىَ العاصِفاتِ

وكانت «دولة» من أقرب الخواص لابن المعتزّ الذى أسرّ لها بأسراره، فكانت تعرف منه شدّة كرهه لخدم القصر من الأتراك وجنوده، فكثيراً ما كان يردّد أمامها: «كأنى بالناس يقولون كيف يرضى الخليفة بأن يدبرّ أمره عبد تركى، حتى يتحكم فى المال وينفرد بالتدبير.»

لذلك فإنه لم يهنأ بالخلافة، أو بالأصح بلقب الخليفة إلاّ يوماً واحداً أو بعض يوم، إذ تفرّق الناس عنه وقُضِىَ عليه خنقاً، ولم يكن هذا بدعاً كمصير سيئ من بين الخلفاء العباسيين، فالمهزلة المحزنة بدأت منذ جَدّه المتوكل، وحلّت بأبيه المعتزّ بعد خلعه، وكذلك حاق بمن تلوه، كالمستعين، والمهتدى، والمقتدر.

ومن الأدعى للدهشة أن تنقل لنا الجارية الحظية دولة أبياتاً لابن الرومى قالها فى هجاء سيدّها ومولاها ابن المعتزّ .. فقالت:

أمسىَ الشبابُ رداءً عنك مُستَلَبَا ... ولن يَدُومَ على العَصْرَين ما اعْتَقَبَا
دَع الخلافَةَ يا مُعْتزُّ من كَثَب ... فليس يكسوك منها الله ما سلبا
أترتَجى لبسها مِنْ بعد خَلْعِكَهَا ... هيهات هيهات فاتَ الضرعُ ما حَلَبا

ولنا أن نتساءل: أهذا هو أسلوب دْولة فى اكتساب ثقة الأضداد؟ أن تحفظ لهذا وتردد ذلك القول، فكانت مجمع النقائض والمعارضات؟ ربمّا، ولله فى خلقه شئون.

قَبِيحَـــة

لا تشيح بوجهك عنها ، لأنها ليست كما ينبئ اسمها ! فهى جارية ، وحظية أيضاً .. فمعنى ذلك أنها لابدّ أن تكون متمتعة بما يميزّها عن بنات جنسها . فهل هو قبح الوجه الذى يميزّها ! ؟ كلاّ طبعاً . أم أن عوجاً أو اعوجاجاً يشوب عودها !؟ إنها ممشوقة القوام معتدلة العود. إذن فهو عيب جزئى بالوجه ، كالعين أوالأنف أوالفم ، ينَفّر الرجالَ من إطالة التطلّع إليها .. لكنه عيب يلحّ على صاحب العين الخبيرة أن يسترق النظر إليه ، وعين مولاها العباس بن الحسين وزير المقتدر بالله ، هى العين التى استراحت بما لايستريح إليه غيره من الناظرين !! ولو قلنا إن مولاها هنا الغيور هو الذى سمّاها بهذه الصفة « قبيحة » لإخافة الفضوليين من إشباع أنظارهم برؤيتها ومتابعتها ـ لرددنْا على أنفسنا بالقول كيف تصدّق العيون ادعاءات لاتستند إلى حقيقة واحدة ، حقيقة غالبة ، هى أنها خالية من العيوب ، إلاّ من سلاطة لسانها .. فويْل لكل من وجّه لها غزلا أو أخطأ فى حقها ، تسلقه بلسانها الحادّ ازدراءً وتهكماً، من هنا وضع مولاها كل ثقة فيها ، واطمأن إلى أن تكون كفيلة بحماية نفسها من شتى العيون وسائر المعلقين .

ويبدو أن هذا السلاح قد أفلح فى اكتساب تأييد من تهفو نفوسهم إلى القوة ، حتى ولو كانت قوة امرأة على سائر الرجال ، لذلك فإن كثيراً من المتأدبين وعشاق الأدب والرواة قد تلقفوا ما كانت ترويه لهم من قصائد نادرة ، مثل أبى عبد الله محمد بن على المعلّى ، فأنشد عن لسانها قصيدة أبى بكر العلاّف البغدادى لنفسه :

قل لمن يبرِمُ المـريضَ فلو عُـدْ ت صحيحاً لعـادَ ذاكَ مَريضـاً .
لا تُطِلْ عنده الجلوس فتـزدا د طـويلاً مـن السّقام عـريضا .
قُل له كيف أنْتَ وادْع له الـ له وعَجّلْ عن العَليل الُهُوضا
فإذا كانَ مَنْ يَعـودُ مُطيـلاً لم يكـن عائداً وكان بعيضاً

وقصيدة أخرى يُسرّ بها لنفسه قائلا :

كأنــك بالمـصرَعْ الكائِـن وجسْمـكَ فى صُورة البائـن
وقـد صرْتَ فى أمَل خادع كَـذُوبٍ إلى أجـل حائـن .
وقـام الـذى صنته برْهـَةً يحـثُّ عـلى نُقـلة الصـائِـن
فمـن نـاقلين إلى غاسـل إلى حامـليـن إلى دافـن
فلمـا ارتُهـنْتَ بـدار البَـلَى حَصَلْتَ على العمل الرّاهِـن
وقد كُـنْتَ تسكن فى ظاهر فأصبحت تسكـن فى باطـن
ستَـتْرُكُ بيتاً وثـيقَ البـنـاءِ إلى بْـيتـك المُظلـم الواهِـنِ
وداراً يعيـشُ بهـا السّاكنون إلى منزلٍ مَـيِّتِ الـسّاكِـنِ
فـلا يَغْـبنَنّ امــرؤ نَفْسَهُ فَوَيْلٌ مـن الغَـبن للغابـن

ويبدو أن حاستها الشعرية كانت عالية القدر ، لانتقائها حفظ مثل هذه الأشعار الفريدة ، مما جعل النقلة عن ابن المعلى يثقون فيما انتقته قبيحة من هذه النماذج ، ومنهم ابن المعلى الأزدى البصرى ، الذى قال عنه ياقوت الحموى : إنه النحوى اللغوى ، روى عن الفضل بن سهل ، وأبى كثير الأعرابى ، وابن لنكك الشاعر ، والصولى أبى اسحاق ، وابن دُريد اللغوى ،

وله شرح ديوان تميم بن مقبل .

ومنهم أيضاً ذاكر بن كامل الحذّاء الذى ذكره ابن الدبيثى فى تاريخه فقال : إنه أخو أبى بكر المبارك .. وقدسمع بإفادة أخيه المذكور ، الكثير من الشيوخ ، وبورِكَ له فيما سمع ، حتى حدّث سنين كثيرة ، وكان صالحاً قليل الكلام ، مضى على الصحة والاستقامة ،وتوفّى يوم السبت عشية سادس رجب سنة إحدى وتسعين وخمسمائة عن ست وثمانين سنة تقريبا ،كما أن له ترجمة فى تاريخ الإسلام للذهبى .

ومنهم أيضاً محمد بن عبد الواحد الهاشمى الذى كان من ذرّية المتوكل على الله ، ويعرف بابين شفتين ، ولد سنة ٥٤٩ وسمع الحديث من عدة شيوخ وتفردّ بالرواية عن بعضهم ، وكان جليلَ القدْر فاضلاً ، حسن الطريقة ، وتوفى فى بغداد سنه ٦٤٠هـ .

وغيرهؤلاء ممن نقلوا عن قبيحة الرّاوية ، متغاضين عن قبح لسانها ، ومستعيضين عنه بطيب ذوقها وحاستها الشعرية فى انتقاء القصائد المتفردة ، غير مبالين بهذا التناقض ، ولم يشفع لها الثقة التى وضعها فيها مولاها الوزير فخسب ، بل الشاعر بشار بن العلاّف بثها مشاعر نفسه ، وأفردها دون غيرها بسرّ آلامه .

خَاتُون السَّفَرِيَّة

يقرنها المؤرخون بأربع من زوجات الخلفاء اللائى أنجبن اثنين توليا الخلافة متتاليين، وهى من النوادر التى تفكهّوا بها . كانت أول هذه الزوجات: ولاّدة العبْسيّة التى ولدت لعبد الملك بن مروان ابنيه الوليد وسليمان ، وتوليا

الخلافة .. وقد ورد ذكر ذلك لدى كل من الأصبهانى والطبرى وابن عبد ربه . وثانية هذة الزوجات الخيزران ، إذ ولدت لزوجها المهدى ابنيه الهادى والرشيد .. وكلاهما تولى الخلافة من بعده . وثالثة الزوجات الحظايا تلك التى ذكرها كل من ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة والطبرى فى تاريخه باسم شاهفرند ، وحُرِّف اسمها الكامل إلى شاه آفريد .. كما ذكرها المسعودى فى مروج الذهب باسم شارية ، والصحيح هو ما اتفق عليه الأوّلان .. فهى شهرفند ابنة آخر ملوك الفرس الساسانيين التى تزوجها الوليد بن عبد الملك ، وأنجبت له يزيد وإبراهيم وتوليا الخلافة . أمّا رابعة الزوجات فهى خاتون السَّفَرِيَّة الحظية جداً لدى السلطان السلجوقى ملكْشاه .. إذ ولدت له ابنيه محمداً وسِنْجَر ، وتوليا الخلافة بعد وفاة أبيهما . ولهذه الحظية السعيدة الحظ قصة لايصح تجاهلها ، فهى بعد أن اطمأنت إلى حياتها فى كنف مولاها السلطان ملكشاه ، وأمّنت على مركزها المرموق سيدة للقصر .. وأن لا منافس لها فى قلب زوجها ، آمنت بالله الواحد ا لقهار ، ودخلت فى دين الله ، فأسلمت ،وتديّنت فكان لها سبيل فى طريق مكة يخرج الصدقات من ماء وزاد وعتاد وأدوية لمحتاجى الطريق – لكن أمراً خفياً كان يؤرقها ويقضّ مضجعها .. ذلك هو البحث عن أمها تأكيداً لعراقة أصلها الساسانى ، الذى انتُزعت منه منذ ما يربو على الأربعين عاماً ، حتى اهتدت إلى مكانها فى نهاية المطاف ، فبذلت الأموال لمن أتاها بها ، ولمّا دخلت أمهاً عليها ، جلست خاتون بين جوار يشبهْنها حتى تنظر هل تعرفها أم لا ، فلما سمعت الأم كلامها بين الجوارى، تذكرّت صوتها ، ونهضت إليها فقبلتها واحتوتها بين ذراعيها ، وأسلمت الأم مثل ابنتها ، فنالت ثواباً ما بعده ثواب ؛ لذلك فإنها لمّا ماتت

حضرابن ضرّتها السلطان محمود العزاء ، وقعد يستمع إلى الوغط المعهود تكريماً لزوجة أبيه .

حَظايا خَواتِيـن

من الملاحظ أن خاتون كلمة قد تطور استخدامها ، فبعد أن جاءت بنت ملكشاه صاحبة العصمة خاتون ، وهى صاحبة الحق فيه باعتبارها سليلة ملوك سلاجقة ، شاع استخدام لقب سيدة القصر ، وفازت به من اكتسبن ثقة مواليهن من خلفاء بنى العباس ، بل طغى اللقب على اسم بعضهن ، فلم يعد يذكر الآ اللفظة باعتبارها اسما لها مثل خاتون زوجة الخليفة المستظهر بالله ، كما لم تعد كلمة خاتون مقصورة على الحظايا الفارسيات ، وإنما أيضاً كان يطلق على التركيّات منهن ، مثل شرَّف خاتُون التركية ، عتيقة الخليفة المستضىء بالله ، وحظيّته و أم ابنه أبى منصور هاشم . ومثل سلجوقى خاتون الأخلاطية الرومية ، زوجة الناصر لدين الله ، وقد بلغ من فرط إعجابه وولهه بها أن أعطاها من الجواهر الثمينة وتحف الخلفاء والملوك ما لا تُعْرَف قيمته ، لكن يد المنون لم تمهلها طويلاً .. فتوفّيت وهى فى شرخ شبابها ، وهنا وجدنا الخليفة الحزين يمتنع عن الأكل و الشرب أيّاماً ، وترك دارها بجميع ما فيها من الأقمشة والأثاث على حالها سنين عديدة لا يفتحها ولا يأخذ منها شيئاً ، وكأنها كانت فى حياتها القصيرة تحس بأنها لن تعيش طويلا .. فقد أوصت بأن تنشأ لها تربة بجوار مشهد ولدىْ الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنهم « عوْن ومعين » بالجانب الغربى من الطريق إلى البصرة لتدفن فيها حال موتها ، وشرعت بالفعل فى بنائها ، فأتم الناصر لدين الله إقامة جدرانها وهى مسجاة فيها ، وأوقف فيها خزانة من الكتب النفيسة تُعَارُ لمن

يطلبها بالرهن ، كما أنشأ بجانبها رباطاً مليح البناء واسع الفناء ، ووقفه على الصوفية ، وغرس بين يديه بستاناً أنيقاً يشرف على دِجْلة و يسقى بدولاب من مائها ، ووقف عليه وعلى تربتها أوقافاً كثيرة ، غزيرة النمو والدخل ، وأمر أن يحجّ عنها فى كل سنة ، ويخرج فى طريق مكة الشيء الكثير من الماء و الزاد والكسوة والنعال وأدوية المرضى . أفبعد كل هذا تستكثر كلمة الثقة على كل واحدة من هؤلاء الحظايا فى حياة كل منهم ومماتها على السواء !!

العصران الفاطمى و الأيوبى

صورة اجتماعية لمصر من خلالهما :

عندما جاء الفاطميون إلى مصر فى شعبان ٣٥٨ هـ ، بقيادة جوهر الصقلى ، كان أغلب الأهالى من أهل السنة على مذهبى المالكية والشافعية ، وكانت أقلية منهم من أتباع المذهب الشيعى ، فتعرضوا لكثير من المضايقات والاضطهادات عندما كانوا يحتفلون ببعض مناسباتهم العقائدية .

لذلك كان مما دعا جوهر الصقلى إلى الإسراع فى بناء عاصمة جديدة للفاطميين ، هو ضرورة الابتعاد عن معاقل أهل السنة فى الفسطاط وجامع عمرو . وكما يقول أبو المحاسن فى النجوم الزاهرة .. إنه بمجرد استسلام الإخشيديين للقائد الفاطمى دخل « من الغد إلى مصر فى طبوله و بنوده وعليه ثوب ديباج مذهب ، ونزل بالمناخ ، وهو موضع القاهرة اليوم ، واختطها وحفر أساس القصر فى الليل ، وبات المصريون فى أمن ، فلما أصبحوا حضروا للتهنئة فوجدوه قد حفر أساس القصر فى الليل . »

وفى العام التالى لدخول مصر ، بدأ الصقلى ببناء جامع جديد ليكون

مقرّاً ومركزاً لتعليم فقه المذهب الشيعي . واكتملت بذلك أركان القاهرة ، وصار الأزهر مركز العلماء والشيعة الذين سبقوا الخليفة المعزّ فى الحضور إلى مصر أو الذين حضروا فى صحبته ، وجلس به أول قاض شيعي ٣٦٥ هـ هو على بن النعمان ليملى مختصر أبيه « الاقتصار » فى الفقه عن آل البيت.

ثم شيد الحاكم بأمر الله دار الحكمة عام ٣٩٥هـ لتدريس اللغةوالطب والفلك وسائر العلوم الأخرى لتكون جامعة شاملة .. وكان التعليم فيها فى البدء حرّاً ، ثم قُسِّمَتْ إلى أقسام متخصصة ، بما فيها قسم لتدريس فقه السُّنّة ، كما انتشرت المكتبات الضخمة التى حوت كثيراً من الكتب الأمهات، لكنها تعرضت لنوبة عارمة من التدمير والنهب لسوء الحالة الاقتصادية التى حلّت بمصر أيام الخليفة المستنصر بالله ، وعمّت المجاعة لسبع سنوات ، أن عبيد الفاطميين وجواريهم هم الذين كانوا يمزقون جلود الكتب ، ويتخذون منها مداسات لأرجلهم «برسم عمل مايلبسونه فى أرجلهم » ففنى جزء كبير من هذه الكتب ، ومابقى منها أخذه الأتراك مقابل أرزاقهم المتأخرة عام ٤٦١هـ .

وللمرء أن يسأل: كيف آلَ الأمر بالخلافة الفاطمية إلى هذه الحال من الإفلاس ، بعد أن تدفقت عليها كنوز مصر وشمال إفريقيا حتى الموصل ، وكذلك اليمن والحجاز .. تدفقت فى حجور الخلفاء الذين لم يتعدّ عددهم أصابع اليدين لقرنين من الزمان ؟! وللحقيقة فإن هذا الإفلاس لم يلحق بمال الخليفة قَدْرَ إلحاقه الجوع والفقر بالدولة ورعاياها .. يدلّ على ذلك ماكشف عنه حاصل الخزائن الخاصة بالعصر الفاطمى بعد أن تقوّضت أركان الدولة واستولى صلاح الدين على مقاليد الحكم.. وفى هذا يقول المقريزى :« خرج

من القصر ما بين دينار ودرهم ومصاغ وجوهر ونحاس وملبوس وأثاث وقماش وسلاح مالايفى به مُلْكُ الأكاسرة ، ولا تتصوره الخواطر الحاضرة ، ولا يشتمل على مثله الممالك العامرة ، ولا يقدر على حسابه إلاّ من يقدر على حسابات الخلق فى الآخرة .

كذلك الأمر بالنسبة لوزراء الفاطميين وقوادهم ، ظهرت ملايين الدنانير نقوداً وممتلكات بعد وفاة كل منهم ، وفى الحق كان نظام التمليك لدى الفاطميين وطبقتهم الحاكمة ينقسم إلى نوعين : إقطاع تمليك يورث ، وإقطاع استغلال يمنح حق الانتفاع لشخص بعينه ولا يورث .

وكانت الوسيلة هى إنفاق النزر اليسير من هذه الكنوز على استتباب الأمن والنظام ، وتركيز غالبية هذه الكنوز فى قصر الخليفة للإنفاق منه بإشرافه على نشر الدعوة الشيعية وتمويل الدعاة ، وكذلك إغراق مشاعر الأهالى فى أعياد دعائية على مدار السنة بلغت سبعاً وأربعين عيداً ، ومن محاسن هذه السياسة الدعائية أنها كانت تجمع بين أعياد المسلمين والأقباط على السواء ، ولنا أن نتصور مظاهر الاحتفالات البالغة البذخ والإسراف لتحقيق أهداف الخليفة منها ..فتُزيّنُ دور العبادة بالفوانيس والشموع وأغصان الزيتون وقلوب النخل ، وتسير «كرنفالات» الزهور والألعاب واللهو فى كل الطرقات ، وما كان يصاحب هذه الأعياد مِنْ صَدْح بالغناء ، واحتساء النبيذ وسائر أنْواع الشراب بشكل لم يكن معهوداً بسبب قدوم أهل البلاد الأخرى ــ وخاصة إيران ــ إلى القاهرة ، والاختلاط بأهل مصر .. لذلك فإن الانغماس فى هذا اللهو وهذه الأعياد ، وزيادة أعداد الجوارى ، ونشاط فن الغناء لم يعد بالضرر المادى على الخلفاء بقدر ماحقق هدف الإلهاء ونشر المذهب الشيعى .

هذا كله كان يحدث فى مصر الفاطمية فى حين كانت جيوش الصليبيين تثبّت أقدامها فى بلاد الشام ، إلى أن قيض الله لأمة الإسلام منقذاً شديد الإخلاص لدينه ، وبالغ الإخلاص فى إنكار ذاته ، وفى قمة التشيع لإنجاز مهمته العسكرية فى محاربة الصليبيين .. ألا وهو صلاح الدين الأيوبى.. الذى أطاح بداعى دعاة الإمام الفاطمى ، وجعل من مصر كلها ثكنة عسكرية ، وعلى قمّتها قلعته الصامدة حتى الآن .

وعلى عكس ماهو منتظر من ضرورة تغطية تكاليف الحرب بزيادة الضرائب ، فإنه خفف منها عن أهل مصر بما يزيد على مليونى دينار ، وأسقط جمع مليونى أردب غلة ، وأنقص الموالى عن أهل الذمة فى مصر ، وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على مغالاة الفاطميين فى فرضها للإنفاق منها على دعم دعوتهم ونشرها، خصوصاً أن الأيوبيين قد فاقوا الفاطميين أيضاً فى بناء دور العلم ، واتسمت بالبساطة وإلحاقها بدور العبادة على مذاهب السنة .. فكان زهد صلاح الدين مضرب المثل ، حتى إن مؤرخاً مثل ابن تغرى بردى ذكر أنه بعد وفاة صلاح الدين لم يوجد فى خزائنه من الذهب والفضة إلاّ سبعة وأربعون درهماً ناصريّاً وديناراً واحداً ذهباً صورياً ، ولم يخلّف ملكاً ولا داراً ولا عقاراً ولابُستاناً ولا ضيْعة ،وكذلك سار على نهجه ابنه العزيز وسائر سلاطين الأيوبيين ، الذين استطاعوافى النهاية طرد الصليبيين من مصر وأسر ملكهم لويس التاسع فى المنصورة على يد توران شاه . لذلك فإن أعياد النصر كان من حق المصريين الاحتفال بها و تخليدها بدرجة مخففة عن أيام الفاطميين ، فنشطت فنون اللهو وما يصاحبها من لعب القمار واحتساء

الخمر، وغناء الجوارى .. فلم يعد يفارق السرور نفوس المصريين .. وظهر ذلك فى إبداعات الشعراء وسجلات المؤرخين ..عند ابن وكيع التنيسى وابن قادوس وابن مكنسة وابن دانيال وغيرهم .

أم المستنصر

لم أعثر على اسمها الأصلى ، لا فى المراجع العربية ولا فى الأفرنجية منها ، وإنما اشتهرت باسم ابنها من زوجها الخليفة الفاطمى الظاهر ، ومن ثم عُرِفَتْ بأُمّ المستنصر الذى تولى الخلافة وهو فى سن السابعة ، وظلّ شاغلاً لهذا المنصب ستين عاماً ، لذا فإنها نعمت بالعيش فى كنف خليفتين ـ الزوج والابن ـ كأطول مدة عاشتها جارية سيدة لقصر الأب وابنه .

وأم المستنصر سودانية الأصل ، مجهولة الأب ، لكنها لم تستطع أن تخفى محاباتها لأبناء جلدتها ، فصار الجنودُ منهم والعامة أيضاً ذَوى حظوة لديها ، ولدى ابنها بالتبعية ، مما تسبب فى فتن وقلاقل بين الأتراك وبينهم، أدت بدورها إلى مجاعات فى النصف الثانى من سنوات حكم ابنها . مع أن البداية كانت طيبة ، إذ كانت الأم تمسك بزمام الأمور من قصر اللؤلؤة المطل على النيل ببساتينه الخلابة ، فظهرت القاهرة بمظهر القوة ، وعم الرخاء أسواق مصر ، كما نعمت البلاد بأمْن مُسْتتب وهدوء شامل ، واتسعت أرجاء الإمبراطورية الفاطمية اتساعاً عظيماً .. حتى إذا ماشب الابن عن طوقه ، وأرد أن يدير الأمور بمعرفته ، عاجله الطالع السيىء بانفصال بلاد المغرب عن مصر وتلتها بلاد اليمن ، وحلّت بمصر أزمة مستحكمة أطلق عليها المؤرخون عامة وأبو المحاسن فى كتابه النجوم الزاهرة خاصة اسم (الشدّة العظمى) ..

التى كان يموت فيها كل يوم عشرة آلاف نفس ، وشحّت الأقوات حتى انعدمت ، فاضطر الناس أن يأكلوا الكلاب والقطط ، المذبوحة منها والجيف، بل تخطف بعض الناس بعضهم ، وبيع لحم الإنسان فى الطرقات. كما اضطر المستنصر نفسه أن يبيع كل ممتلكاته وما فى قصر اللؤلؤة من محتويات .

ظلّت هذه الشدة العظمى سبع سنوات ، وقعت فى آخرها فتنة بين الجنود السودانيين والأتراك ، إذ حاول أحد الأتراك قَتلَ سودانىٌّ من حُرّاس الخليفة ، فهجم عليه بعض العبيد وقتلوه ، ومع أن أم المستنصر حاولت جاهدة إظهار براءة ابنها ، لكن الزمام كان قد أفلت من بين يديها ، واندفعوا يغيرون على دور الحكم وينهبون الأحجار الكريمة والمجوهرات ، والكتب الثمينة .. فعّم الخراب سائر البلاد . وازدادت حال الخليفة المستنصر وأمه سوءاً ، فبعثت إلى الخليفة العباسى القائم نستنجد به ، فأرسل رسولا إليهما ، فرأى الخليفة جالساً على حصيرة بالية . ولابسا قبقاباً وحوله ثلاثة من الخدم .. مماحزّ فى قلب المبعوث فبكى ، وأمر ناصر الدولة بن حمدان زعيم الأتراك بالكفّ عن إشعال القلاقل ، كما أوصى الخليفة العباسى بمنح المستنصر مائة دينار شهرياً.

وأراد زعيم الأتراك أن يأمن شرّ الخليفة المستنصر إذا ما استعاد قواه ، فقبض على أمه ، وصادر أملاكها ، ولكنها تمكّنت من الفرار بمساعدة أعوانها هى وبناتها إلى بغداد ، وتخلّت عن ابنها وبنى جلدتها بعد أن تسببت فى شبوب هذه الفتن التى كان بإمكانها تفاديها لو خففت من مُحَاباتها للسودانيين ، وببغداد حان أجلها ، وتم دفنُها فيها .. غفر الله ذنبها .

شجرة الـــدر

أم خليـــل

هى جارية أرمنية الأصل ، أهداها الخليفة العباسى المستعصم بالله من بغـداد ، إلى السلطان الكامل فى القـاهرة ، فـملّكهـا الكامل الأيوبى لابنه الصالح نجم الدين أيوب ، فتزوجها الابن وأنجب منها ابنه خليلا .. فى مرحلة كثر فيها المماليك ، ونبغ من بينهم عدة أشخاص أثّروا تأثيراً كبيراً فى إدارة دفة الحكم فى مصر .

وكان من بين هؤلاء الأشخاص النابغين .. شجرة الدرّ ، فكانت على قدرٍ من الذكاء والدهاء عظيم ، فضلاً عن جمالها الأخّاذ ، فازدادت قدمها رسوخاً بإنجابها ابنها خليل ، وظلّت مشهورة باسم أم خليل حتى بعد وفاته.

وتبوأت شجرة الدر أسمى مكانة ، عندما اعتلى زوجها الصالح أيوب الحكم ،ذلك لأنه لمس فيها مواهبها المتميزة ، فأعتقها ، وصارت ملكة غير متوّجة .

تعرّضت مصر أثناء ذلك للحرب الصليبية ، وفى حملة من حملاتها على دمياط ، توفى الصالح أيوب . فأبدت شجرة الدّر كفاء نادرة ، وحكمة باهرة تنم عن ذكائها وبُعد نظرها ، إنها أخفت خبر موته عن الجيش ، واستدعت طبيبه ليتم غسله ووضعه فى تابوت لدفنه بالليل فى غيبة الأمراء ، كما أشاعت بينهم أن السلطان مريض وممنوعة زيارته ، وظلت تمدّ السماط السلطانى فى موعده ، وتصدر الأوامر السلطانية ممهورة بعلامة السلطان ، فى حين بعثت سرّاً تستدعى ابن زوجها توران شاه من الشام بحصن كيفا ،

وعبأت المشاعر والأذهان بين رجال الدولة وأمراء الجنود لتحلف يمين الولاء لابن زوجها حين وصوله ، وكذلك خطباء المساجد دعوا له تهيئة لمجيئه ليخلف أباه .

والأغرب من هذا وذاك أنها أشرفت على وضع الخطة الحربية وتنفيذها مراقبة لسير المعركة ضد الصليبيين الغزاة .. إلى أن جاء توران شاه وتسلم زمام المُلك .. لينجح فى صدّ الغُزاة عن مواصلة زحفهم من المنصورة إلى القاهرة، ويحقق نصر المسلمين . إلاّ أن اكتسابه حبّ الناس ، لم يلبث أن فقده منهم بعد شهرين من نجاحه ، ذلك لأنه كان خَشِنَ الطباع ، ميالا إلى العزلة ،مما جعل الناس تترجم عزلته إلى تكبرّ وغُرور، خصوصاً أنه أنكر فضل شجرة الدّر كله ، بل وانقلب عليها ساخطاً ، مما دفعها إلى الهرب إلى بيت المقدس خوفاً من بطشه ، فأرسل إليها من يهددها ويتهمها بنهب أموال أبيه وجواهره، هذا فضلاعن أن نزقه ساقه إلى اشتداده فى معاملة المماليك البحرية، فاجتمعت آراء كل الأطراف على التخلص منه ، وطاشت الطعنة الأولى فى أول محاولة لقتله ، ولم يشف غليلهم إلاّ بعد أن نجحوا فى اغتياله بعدئذ وتقطيع جسده وتركه مُلْقًى على جانب البحر دون دفنه .

أما شجرة الدّر ، فقد نادَى بها أمراء المماليك وعلية القوم سُلْطانةً على مصر ، وبالأمير عز الدين أيبكَ مقدماً للعساكر .. وهكذا صارت الجارية الأرمنية ملكة ، فاتخذت لنفسها ألقاباً عديدة « الملكة عصمة الدين شجرة الدر» و « الستر العالى أم خليل » ، كما نُقشَ اسمها على النقود بعبارة «المستعصمية الصالحية ، ملكة المسلمين ، أم الملك المنصور خليل أم المؤمنين» .

كما خُطِبَ لها على جميع منابر الدولة الإسلامية .

وظلت شجرة الدُّر على اتفاق تام مع أمراء المماليك ، وأظهرت فى الحكم كفاءة وجدارة وحُسْنَ تدبير للأمور ، يحسدها عليها الرجال !! حتى بعث الخليفة العباسى إلى زعماء المماليك يستنكر تولِي حكم مصر امرأة ، ويقول لهم « إن كانت الرجال قد عدمت عندكم ، فأعْلِمُونا حتى نُسَيِّرَ لكم رجلاً . »

لم تجد شجرة الدّر من حيلة تتغلب بها على تأليب الخليفة العباسى وصدى ذلك عند المماليك ، لم تجد أفضل من أن تتزوج مقدم العساكر الأمير عزّ الدين أيبك ، والجارية امرأة قبل كل اعتبار ، فلم تطق أن تنافسها فى زوجها زوجته الأولى أم ابنه علىّ ، فأرغمته على أن يطلّقها ، ودلّ بذلك على ضعفه فى الرأى وفى الشخصية وفى السلطة .. مما أوجد فى نفوس كبار المماليك حسرة ،ودفعهم إلى التنازع على السلطة والنفوذ ، وضاقت نفس الزوج الضعيف بما يجرى ، وسئم حياته مع زوجته المسيطرة ، فأراد أن يسترد اعتباره ورجولته ، بأن يخطب بنت ملك الموصل بدر الدين لؤلؤ ، واشتمت أم خليل رائحة الغدرمن زوجها ، كما أحس هو أيضاً بعدم الاطمئنان لوجودها معه فى القلعة فأسكنها فى دار الوزارة ، كما هجر هو أيضا القلعة إلى مناظر اللوق .

ودارت حرب خفية بين الاثنين ، يعقِد فيها النصر لمن يباغت الآخر بالضربة القاضية ، ولم يكن لشجرة الدر غير سلاحها كامرأة ، وامرأة جميلة، وجارية ترضى بالتبعية حتى ولو كانت إلى حين ، وبكل نعومة ولطف ،

وبكل مسكنة وضعف ، التمست منه عنها الصفح ، واختارت مبعوثتها إليه أخلص جواريها ، على شاكلتها ولاينقصها عنها إلاّ الطموح أو الإحلال محلها ، وأجادت المبعوثة دورها ، فأدّت نقل صورة سيدتها ومولاتها المتيمة بحبّ زوجها الجسور القاسي القلب !! وما كانت غيرتها الزعناء إلاّ من نبع حبها الجارف له .. حتى إن أيبك لم ير بأساً من الصفح والاستجابة لدعوة زوجته ..

وانتقل إلى القصر بعد أن قضى عصر ذلك اليوم فى لعب الكرة ، فاستقبلته شجرة الدر ساعة الغروب مهللة ومرحبة ، واحتوته مشتاقة لحبّه وحمايته لها بقوّته ، واحتواها لائماً ومعتذراً ، فتصالحا وتصافيا ، واستراح بجانبها ، ثم دخل للاستحمام .. فكان ينتظره خمسة من أعتى غلمانها الأشداء ، مالبثوا أن انقضوا عليه وأجهزوا عليه .. ولم تفلح استغاثاته فى إلاَنَةِ قلبها ، وإنما تظاهرت بتأثرها لحاله وزجرت غلمانها آمرة لهم أن يتركوه ، وهى تعرف سلفاً أنهم لن يتركوه حياً خوفاً من استبقاء نفس فيه ينتقم به منهم بعدئذ .

كذلك هى لم تأمن شرّ انتشار خبر مقتله ، فأسرعت بتكثيف اتصالها مع أبرز أمراء المماليك الصالحية ، لكنها أخفقت فى إقناع أحد أواستمالته أن يكون ستاراً تستتر وراءه فى تولى السلطة ، وفى صباح اليوم التالى شاع خبر موت السلطان أيبك فجأة وهو فى عنفوان صحته وقوته ،لذلك فإن أغلب المماليك وعامة الناس ، لم يصدّقوا أن الليلة السابقه مات فيها أيبك ميتة طبيعية، ورجحَ خبر مقتله غدراً ، وأجمعت أصابع الاتهام على الإشارة إلى

زوجته القاتلة ، فحاصر المماليك شجرة الدر وحريمها ، وسجنوها فى البرج الأحمر ، انتظاراً للبَتّ فى شأنها ، ونادوا بابن السلطان المقتول سلطاناً عليهم ، فصار المنصور على بن أيبك ممسكًا بزمام الأمور ، ولم يلن أمام محاولات مماليك الصالحية لإنقاذ جارية أستاذهم السجينة ، فأمر بنقلها إلى أُمّه لتنتقم منها بنفسها ، وبالفعل كانت نهاية شجرة الدُّر بضربها بالقباقيب حتى الموت وإلقائها من فوق سور القلعة ، ولم تدفن إلا بعد عدة أيام ، فنقلت جيفتها فى قفة إلى مقبرة قرب مشهد السيدة نفيسة .. عبرة لكل من لاتعرف لطموحها حدوداً .

* * *



العصر الأندلسى

صورة من المجتمع فى الأندلس :

عندما وصل عبد الرحمن بن معاوية ين هشام ـ المعروف بعبد الرحمن الداخل ـ إلى بلاد الأندلس هرباً من بطش الدولة العباسية الغالبة ، نزل بمدينة «طرّش » فى ربيع الآخر من عام ١٣٨ هـ . ووجد المجتمع الأندلسى ينقسم إلى ثلاثة أقسام فى سائر إماراته .. أولها : البربر الذين قام على أكتافهم حقيقة فتح الأندلس بقيادة طارق بن زياد ، وكان على رأس اثنى عشر ألفاً ، فظل البربر يعتبرون أنفسهم أصحاب الحق فى حكم البلاد التى سلبها منهم العرب . وثانيها : عرب المدينة الذين هجروا الحجاز بعد إلحاق الهزيمة بهم على يد يزيد بن معاوية فى وقعة الحرة، وآثروا البعد عن بطش الأمويين بهم . وحاربوا بجانب البربر لينعموا بالحياة المستقرة فى الأندلس محكومين أو حاكمين على السواء . وثالث الأقسام : عرب الشام اليمانية ، أو من كان يطلق عليهم الَشوام تجاوزاً ، وهم الذين دانت لهم الأمور تحت قيادة موسى بن نصير.

ولهذا كان التناحر بين هذه الأقسام متناوباً بين قسمين على الثالث ، حسب التقارب والتنافر بينهم الذى يخضع للأطماع أو لتشجيع والى الشمال الإفريقى .. ومن ثم فإنه مجتمع غير مستقرّ ، تشوبه القلاقل والحروب .

لكن كل أمير من أمراء الأقليم كان يتصرف فى إمارته كملك مستقل عن الآخرين ، له مخصصاته وممتلكاته ، وله جيشه الذى يسانده ، كذلك مجالس الأدب والفنون بجانب مجالسه مع العلماء ، ويصحب ذلك بالطبع

الغناء والطرب ، واللهو المتخطّى لحدود الأدب . فما كان من عبد الرحمن إلاّ أن قصد إشبيلية ، حيث كان فيها مؤيدون كثيرون من الأمويين واليمنية، فأخذ البيعة بها لنفسه ، وبلغ يوسف بن تاشفين الملك القائم فى قرطبة العاصمة خبر البيعة له ، فقرر مُبَاغتته بالهجوم فى أشبيلية قبل استفحال أمره، لكن دهاء عبد الرحمن جعله ينظر إلى قرطبة نفسها وقدخلت من جيش يحميها ، فتسلل عبر نهر الوادى الكبير ، وترك ناراً موقدة فى معسكره بأشبيلية لإيهام عدوه بوجوده داخله ..لكن عيون يوسف نقلت له ما أضمره عبد الرحمن والتقى الجيشان فى معركة فاصلة بعد تلويح بالرغبة فى التفاوض والمهادنة ، حتى عبر النهر ، وكان النصر معقوداً له فى حين فرّ خصمه ورجاله، ودانت له الأمور بقرطبة ، ليعيد مجد بناء دولة أموية فى المنفى أو فى بلاد الأندلس . لكن هل يمكن لنار الثأر القديم، والعصبيات المقيتة والفتن أن تخبو ؟! نعم لقد امتدت سنوات حكمه ملكاً مُلَقّباً بصقر قريش إلى اثنتين وثلاثين سنة ، ومن الغريب أن أحداً من خلفاء العباسيين لم يفكر فى محاربته ، وحتى المنصور نفسه قال حين علم بتأسيسه دولة الأمويين الجديدة بالأندلس: « مافى هذا الشيطان مطمع ، فالحمد لله الذى صَيرّ هذا البحر بيننا وبينه » ثم تساقطت طليطلة وبقية مدن الأندلس فى يدى عبد الرحمن حتى عندما تحالف مُنافسُوه من الأمراء والبربر مع شارلمان ملك فرنسا، تخالف الحظ معه ، فلم يتمكن أعداؤه من تنفيذ الخطة الموعودة ، لافتقاد التنسيق بينهم ، واغتيال بعضهم كالصقلبى ، وبهذا صار عبد الرحمن أميراً لأسبانيا كلها ، واستحق لقب صقر قريش . واستقدم كل الأمويين المشتتين فى آسيا وإفريقيا ، وأغدق عليهم من خيرات الأندلس الكثير ، فخلق فئة ذات امتيازات

تسانده ـ كما ظن ـ لصلة القربى . ولم يلبث أن تآمر عليه ابن أخيه المغيرة ابن الوليد وهذيل بن الصميل ، لكنه سبقهما فى الغدر بهما قبل استفحال أمر المؤامرة ، واضطر إلى الإكثار من الجند المرتزقة بعد أن انفض عنه زعماء العرب والبربر كلما تقدم به الزمن ، فاستكثر من شراء العبيد ، من إفريقيا فئة كبيرة من البربر ليكوّن منهم جيشاً دائماً قوامه أربعون ألفاً . فوضع نواة طبقة أخرى فى المجتمع الأندلسى تدين له بالولاء والطاعة العمياء .

فإذا ما أضفنا إلى هذا طبقة أهل الجزيرة الأسبانية الأصلاء من الفرنجة ، والذين دخل بعضهم الإسلام ، وأنجبوا جيلاً من الشباب ، كما عقدت صلات زواج بين العائلات المسيحية وأزواج من المسلمين المحاربين ، فتولّ نسل خليط من دم العرب ودم الفرنجة .. ومن ثم كان مجىء صقر قريش فى وقت بلغ فيه المجتمع حدّ الانصهار بين الذين أسلموا من الفرنجة ، والمولّدين من أبنائهم ، وبين المستعربين الذين بقوا على عقيدتهم الدينية لكنهم تشبعوا بالعادات الأسرية المسلمة .. وامتلأ القصر الأموى الجديد بنماذج عديدة من هذه الفئات من الرجال والنساء .

وكان للتسامح الدينى أثره فى ذيوع التفاهم والدعة بين المسلمين وأهل الذمة من المسيحين واليهود بفضل سياسة عبد الرحمن ... مما أتاح فرصة لرعرعة الحضارة ورغد الحياة .. وأفاء كل ذلك على الرفاهة والفنون بالخير والنمو ..

وكان لوصول زرياب غلام إسحاق الموصلى إلى الأندلس أثره فى نشاط الموسيقا والغناء وأهل الطرب ، ولم تقتصر مهمة زرياب على فن السماع ،

وإنما تعداه إلى تعليم عرب الأندلس تناول الطعام بالملعقة والشوكة والسكين بدلاً من استخدام أياديهم مباشرة ، كما علم المرأة الأندلسية كيف تتزين بالثياب الفاخرة والعطور وتصفيفات الشعر ، كما بدت لمساته فى تأنق النساء فى فُرشهن وتأثيث البيوت .

ولم تقتصر مظاهر الثراء على بناء القصور الفاخرة ، بل بَنَى الأمويون مدُناً بأكملها ، كمدنيتىْ الزهراء ذات الطبقات الثلاث بالقرب من قرطبة على سفح جبل العروس ، ومدينة الزاهرة ، فضلاً عن الجامع الكبير ، وقصر المكرم الذى بناه المأمون بن ذى النون أقرب لقصور ألف ليلةوليلة فى الأساطير، وكذلك سائر المساجد فى شتى أنحاء الأقاليم ، ومثلما وجدنا فى مجالس الأنس العباسية ، وجدنا ما هو أكثر بذخاً وثراءً فى مجالس أمويى الأندلس ، وإهداءاتهم بالجوارى المزدانات بأثمن الجواهر وأفخر أنواع الثياب الحريرية المرقومة بالذهب ، والفراء الوثير ، والملاحف المذهبة للخيل ، والأبسطة .

أما الطبقة الوسطى فى الأندلس فهى من التجار والصناع الذين يقدمون أدوات الترف والنعيم للوزراء والولاة والقادة وكبار رجال الدولة ومن يدورحولهم من الحاشية .. وهى طبقة ميسورة الرزق بالطبع . وكذلك طبقة العامة لم تكن حالها من الشظف والفقر مثل شبيهتها فى بغداد ، بل كانت أعلى مستوى لكثرة مافى الأندلس من الأرزاق الطيبة .

أما المرأة فكانت أسعد حظًا بكثير عن مثيلتها فى المشرق ، فحظيت بقدر من الحرية أكبر .. فكانت الأميرات يظهرن أمام العامة سافرات الوجوه، ومنهن أسماء شهيرات شَغَلْنَ مناصب مرموقة فى الدولة . مثل « مُزْنَة » كاتبة

عبد الرحمن الناصر ، ومثل « لُبْنى» كاتبة ابنه الحكم المستنصر ، و« رسيس » و « كتمان » .كما كان منهن شاعرات كبيرات مثل « حفصة الركونية » و«ولاّدة بنت المُستكْفِي» وكان لكل منهما مجلس أدبي يقصده الأدباء والشعراء والوزراء .

فلا عجب أن يستتبع ذلك شيوع الغناء والطرب ، ويصاحبه رقص الراقصات بفضل زرياب، فاشتهر من المغنيات بنانة وقلم وعلم وشفاء ، ومن الراقصات نزهة ، ومن المغنين من كان يصنع بنفسه آلة العود ويُلَحّن الأغانى عليها مثل أبى الصلت أمية ، ومنهم من اشتغل بالفلسفة مثل ابن باجة الذى كان علماً على الموسيقا والألحان ، وكذلك تلميذه أبو عامر بن الحمارة .

وها هو ذا على بن يوسف بن خروف القرطبى يصفُ لنا غناءً راقصاً:

ومنوِّعِ الحركات يلعبُ بالنهُى[1] لبس المحاسن عند خلع لباسه
متأوِّداً كالغصن وسط رياضه متلاعباً كالظبى عند كناَسه[2]
بالعقل يلعب مقبلاً أو مُدْبراً كالدهر يلعبَ كيف شاء بناسه
ويضمُ للقدمين منه رأسه كالسيف ضم ذُبابُه لرئاسه

وها هى ذى حفصة الركونية تصارح صديقها الشاعر أبا جعفر بن سعيد باستبطائه فى المجيء ، مع ملاحظة ما قَدْ عُرفَ عن فتيات الأندلس وسيداتها مِنْ تَحَرُّر ومنَ لقاءاتٍ بينهن وبين الشعراء فى قصورهن ، وفى الحدائق والرياض لكن حبُهن لهم كان حُبٌ طهر وعفافٍ لاحُبٌ لهو

(١) النهى : العقول .
(٢)الكناسُ : مَوْلجٌ فى الشجر يأوى إليه الظَّبْىُ ليستتر .

ومجون .. تقول حفصة :

أزورُك أم تــزور فإن قلبــى إلى ما تشـتهى أبداً يميــلُ
فعجّل بالجواب فما جمـيلٌ أناتك عن بثيـنة ياجميـل

وأجابها أبو جعفر مؤكداً حبه واحترامه ويرحّب بمقدمها بقوله :

أجِلُّــكُم ما دام بى نهضــةٌ عن أن تزوروا إن وجدتُ السبيلْ
ما الــروْض زوّارا ولكنــما يزوره هــبٌّ النســيم العــليل

فلاتكتم غيرتها عليه وهى فى الطريق إليه .. فتقول :

أغار عليك من عيْــنى ومنىّ ومنـك ومن زمـانك والمـكان
ولو أنى خـبأْتك فى عيـونى إلى يـوم القـيامة ماكـفـانى .



صَبيحَــــة

صبيحة أو صبح ـ كما كان يحلو لزوجها تاسع ملوك بنى أمية فى الأندلس الحكم المستنصر بالله – أن يناديها به .. كانت جارية فى قصر الخليفة عبد الرحمن الثالث ، وكانت تتمتع بصوت جميل ، ووجه مليح ، وكان يحلو لها أن تغنى بصوت خفيض وهى تتريض فى حدائق قصر الزهراء بقرطبة .. فسمعها ابن الخليفة ، وكان محبّاً لسماع الموسيقا والشعر . فأُخِذَ بصوتها ، ولما عثر على مصدر هذا الصوت الجميل ورآها بُهِرَ بجمال وجهها ، ولم يتركها منذ ذلك اليوم

وعندما مات أبوه تولى الابن الخلافة مكانه ، وأعلن زواجه بها ، وازداد الرباط الزوجى توثقاً بإنجابها منه ولدين ، فازدادت مكانتها ، وتأكدت صدارتها للنشاطات العلمية والاقتصادية كزوجة لخليفة يشجع كل هذه المجالات ، فضلاً عن درايته بشؤن الإدارة وقيادة الجيوش ، فرفرف الأمان وساد النظام ، وملأت الطمأنينة نفوس الحكماء والمفكرين ، فرحلوا إلى الأندلس ، ودبّ النشاط فى سائر فروع المعرفة والأدب ، وانهمك فى التشجيع وإجزال العطاء لهم ، كما لمس موهبة جديدة فى زوجته هى القدرة على المشاركة فى إدارة شؤن الحكم ، فأبدت حكمة وكياسة ، وأثبتت جدارة ورياسة ، فأشركها معه علناً ، ومنحها سلطات واسعة .. حتى أصبحت السلطان الحقيقى صاحب الكلمة النافذة .

ولما ثقلت أعباء الحكم على كاهل الزوجة ، رأى الزوج العطوف أن يعين مساعداً لها يقوم بتحرير أوامرها وتبليغها لسائر الجهات ، واختار لها كاتباً

نابهاً شاباً ليستطيع القيام بكل هذه المهام ، هو محمد بن أبى عامر ، كما جعل من جعفر المصحفى حاجباً لمجالس الحكم التى ترأسها صبيحة ، وأشرفت بنفسها على تدبير الخطط اللازمة للدفاع عن البلاد. ثم عهدت إلى ابن أبى عامر مهمة إدارة شئون ممتلكاتها ومخصصات ابنها ولىّ العهد ، فبذل الرجل أقصى جهده ليكون على مستوى ثقتها فيه كمستشار لها ، وقدّم لها من الهدايا كلّ نفيس يعجز دخله عن شرائه لها ، مما جعل الناس يتساءلون عن حقيقة مصدرها ، ويهمس الخرّاصون مُشككين فى ذمة ابن أبى عامر ، فوصل الهمس إلى مسامع الخليفة ، واستدعاه إليه لتقديم حساب عماً لديه من أموالٍ ، واستطاع فى آخر الأمر أن يسدد بالاستدانة كلّ ما أسرفَ فى شرائه من هداياه لها ، ومن ثم أبقى على ثقة الخليفة فيه ، حتى إنه كلفه مهمة السفر إلى مراكش للتفتيش على أموال قائد الجيش هناك الأمير غالب، وكذلك مراقبة بيت المال .. فأدى مهمته على خير وجه ، وعاد إلى قرطبة بعد ثلاثة أشهر .

ولماّ مرض الخليفة ، وشارف على الموت ، تداركت صبيحة الموقف فعقدت مجلساً كبيرا ، ضم أشراف الأندلس ، ودعت الخليفة إلى أن يتحامل على نفسه ويقرأ عليهم صيغة مبايعتهم لابنه هشام ولىّ العهد بالخلافة من بعده ، فقبلوا جميعاً مبايعته خليفة ، وبذلك نجحت صبيحة فى تفويت فرصة الخلافة على شقيق الخليفة المحتضر ، وتثبيت ابنها الذى لم يكن يتعدى عمره وقتها أحد عشر عاماً ، ولا يمكن تجاهل دور ابن أبى عامر فى الدعوة لهشام بين وجوه الأندلس ، مما جعل الخليفة يكافئه بتعيينه مفتشاً عاماً للقصر السلطانى .

ومات الخليفة الأب ليحلّ محله الابن الصغير ، ليبقى تحت وصاية أمه صبيحة ، و لكن طباعها كجارية مدرّبة على أجواء القصور ، وحيل أصحاب المطامع ومؤامراتهم ، جعلتها لايهدأ لها بالٌ إلا بعد التخلص نهائياً من المغيرة شقيق زوجها الراحل ، فنجحت فى تدبير مؤامرة تخلصت بها من حياته كلها، وخلا الجوّ لها ولابنها ، أو بالأصح ظنت ذلك .. ذلك لأنها برغم تخفيضها الضرائب عن كاهل الناس ، واكتسابها محبتهم ، فإن مستشارها وساعدها الأيمن ابن أبى عامر ، الذى عاونها فى كل خطوات الإصلاح التى حققتها، غرّه نجاحه ، فتكبر وتجبر ، خصوصاً بعد أن حقق نصراً على الفرنجة ، وأبعد خطرهم عن البلاد، مما دفعه إلى التفكير فى الانفراد بالسلطة، وإبعاد هشام عن منصب الخلافة ، فاتخذ أول خطوة ليدعّم مركزه بأن تزوّج من ابنة القائد غالب . وكما لو أن فى قلب صبيحة رواسب أكثر من مجرد الإعجاب بابن أبى عامر ، لأن الغيرة دبّت فى قلبها بعد إعلان زواجه ، ولم تستطع إخفاء ماثار بداخلها ، فكان ذلك إيذاناً بفتور العلاقات بينهما .. ثم اشتعال صراع عنيف بينها وبينه ، فسممت العلاقات بين كثيرٍ من أنصارها وبينه ، وأوغرت صدورهم عليه ، وكادت أن تنجح فى تدبيرمؤامرةللإطاحة به، لولا أن علماء الدين كانوا يساندونه ، ولولا أن المنية عاجلته فأراحها واستراح . وكذلك هى لم تعش بعده طويلاً ، فماتت بعده بست سنوات ، فاستراحت من كفاحها الطويل ، وأراحت كبار شخصيات الأندلس من تحكّما تها ، لكنها كانت سعيدة الحظ بموتها ،فلم تشهد اضمحلال الدولة الأندلسية وأُفول نجمها الذى أشرب أهلها الذل والهوان .

جوارٍ ولكن لسن حظايا

أُمُّ الخَيْـــــــر

هى صفة لرابعة العدوية ، لأنها صورة خالدة من صور الزهد والتقشف والورع . مات أبوها إسماعيل وهى فى عمر الزهور ، فلم تستطع مواجهة الحياة وتحملّ نفقاتها الباهظة ، حيث عم الغلاء الشديد مدينة البصرة عام ٧٠ هجرية ، ومن ثم صارت من الموالى ، ووقعت بذلك فى أَسْرِ رجل ظالم ، أذاقها كل صنوف العسف والهوان ، ثم باعها لرجل آخر ، لم يكن أفضل من سابقه .

صبرت أم الخير على كل مالاقته من قسوة الدهر بنفسٍ طيّبة ، ولم يكن يشدّ من أزرها ويقوّى عزمها غير انشغالها بأمور ثلاثة :

أولها : ترُى هل تفوز برضا الله ، فيقبضها إليه وهى على إيمان كامل ؟

ثانيها : ترُى هل تفوز برضا الله ، فتنال صحيفتها بيدها اليمنى يوم الحساب ؟

ثالثها : ترى هل تفوز برضا الله ، وتكون فى فريق الذاهبين إلى الجنة يوم الحشر ؟

فلا عجب أن تزهد فى كل شىء من مغانم الدنيا ، وتعكف على العبادة والدراسة والعلم والتأدب بآداب الدين .. فكان يسعى للجلوس إليها علماء عصرها لمباحثتها فى شتى العلوم . ونظراً لانهماكها فى شئون دينها عن ضرورات دنياها .. لم تكن لتحس بفقدها حرّيتها لدى سيدّها، إلاّ عندما

مُنعت من مواصلة تعبدّها ، فابتهلت إلى الله القدير فى صلاتها أن يعيد إليها حريتها لكى تعبده بلاموانع أو مهددات ، وهال سيّدها ماسمعه من دعاء خاشع وإيمان عميق ، فمنحها حرّيتها ، وخيرّها بين أن تبقى فى البيت أوترحل عنه ، فاختارت الرحيل لتعيش من عمل يدها ، وانطلقت بين أبناء وبنات عصرها تدعوهم إلى العمل بمبدأ: « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً »

وعاشت أم الخير فى دار خربة غير مؤثثة حتى إن أحد أثرياء البصرة عرض عليها الانتقال إلى إحدى دوره العديدة ، فلما رأت ما فيها من أثاث ورياش وطعام .. تركت الدار لئلا تفتنها هذه المتعلقات عن التفكير فى الدار الآخِرَة ، وعادت إلى حجرتها المتواضعة لتواصل التعبد ، والعيش على كسرة خبزٍ أو شربة ماء . وكانت ترفض كل ما يُقدَّمُ لها من صنوف العون ، حتى عندما مرضت ، حاول أحد التجار أن يقدم لها كيساً به بعض المال ، فرفضته ، ولامَهاَ الحسن البصرى ، فاعتذرت قائلة : «كيف أحصل هذا المال، وأنا لا أعلم هل اكتسبه صاحبه من حلال أم من حرام !! »

لذلك فإنها عُدّت فى مقدمة الجوارى الصالحات ، اللاتى لم تَغُرَّهُنَّ مغريات الدينا ، ولم يَسْعَيْنَ إلى نيل حُظْوَة أواحتواء نعمة ، وكثيراً ما سمعها السامعون تدعو الله قائلة : « ربِّ لاتجعل فى قلبى مكاناً لغير حبّك . » فلا عجب أن يسبغ المؤرخون والمتصوفة صفة « تاج الرجال » رفعاً لشأنها ، وتعظيماً لِقَدْرِها .

ولّما مرضت مرض الموت ، طلب منها مريدوها أن تدعو الله أن يمنحها

الشفاء، تعجّبت قائلة : « إذا كان هذا أمر ربى ، فكيف أخالفه وأطلب منه غير ما أراد » .

ورحلت رابعة عن دنيانا فى سنة ١٣٥ هـ عن عمر يناهز الثمانين عاماً ، وكُفِّنتْ فى عباءتها الصوفية التى ظلت تستصحبها معها أينما ذهبت. رحم الله شهيدة الحب الإلهى وأسكنها فسيح جناته .

سَـــــلاَّمة القَسّ

سلاّمة وريّاء أختان عاشتا بالمدينة ، رضيت الأولى أن تكون ظلاً للثانية، فعندما احترفت ريّاء الغناء ، وصارت لها دار يقصدها المغنون والشعراء ، رضيت أيضاً أن تتخذ دور المساندة لأختها .. ذلك لأنها لمست فى نفسها عشقاً للغناء ولصوت أختها ، لكن أحداً لم يسمع عنهما عوجاً أو انحرافاً ، بل كانت لهما كل السّمعة الطيبّة وانقشاع كل ريبة عنهما ، فاشتهرتا بالحُسن والعفّة مع جمال الصوت وإتقان الأداء .

وحدث أن ضاق وَالى المدينة الزاهد عثمان بن حيّان بكثرة الغناء والمغنيّن والمغنيّات ، وألحّ الزاهدون عليه فى إيقاف هذا التيار الماجن ،فصاح الوالى آمراً بطرد زبانية المجون من المدينة فى مهلة أقصاها ثلاثة أيام ..

وهَاج أنصار الطرب وماجُوا ، وفزع الأشراف من عشاق السماع أنْ تَخْلُو المدينة من هذه المواهب ، وخافت سلاّمة بدورها أن تخرج من المدينة ، وتوجهت باكية بتشجيع من الشريف ابن عتيق إلى الوالى ، وأذن لها أن تدخل ـ لما هو مشهور عنها من عفة ووقار ـ فسلمت وأثنت عليه ، وانطلقت

تتحدث حديث الراوى للأدب وأخبار العرب ، وجلست تتلو من آيات الله الكريمة فى تؤُدَةٍ وخشوع ، وكانت نبرات صوتها تتسلل بالكلمات المقدسة إلى قلب الوالى الطيب، فيتهلل وجهه مشرقاً بالاستحسان والرضا .. حتى إذا ما فرغت من الترتيل .. هدأت نفس الرجل ، ودعا لها بالهداية .. فانطلقت تغنى أشعار حداء الإبل وتنشد بيتا :

سددْن خصاص الخيم لما دخلنه   بكل لَبان واضح وجبين

فيستزيدها الوالى وهو يزداد منها اقتراباً .. فتغنى

قدكنت أعذل فى السفاهة أهلها   فَاعْجَبْ لما تأتى به الأيام

فاليوم أعذرهم وأعلم أنما   سبل الضلالة والهدى أقسام

ولم يسع الوالى ابن حيان إلاّ أن يصدّق على قولها ، ولم ير حرجا فى الرجوع عن أمره ، واستبقاء سلاّمة بالمدينة ، ومن يكنّ على شاكلتها من العفّة والإحاطة بمثل هذه الأمور .

لكن سلامة كجارية ، لايحق لها أن تملى رغبتها على الآخرين ، أوتحقق مشيئتها بالبقاء فى المدينة ، فمشيئة الله هى الغالبة فى كل الأحوال ، ولم يجد مولاها بنفسه رغبة فى استبقائها لديه – بعد أن ذاع صيتها بالمدينة . فباعها لسهل بن عبد الرحمن المكىّ بعشريّن ألف دينار . ومن ثم انتقلت ملكية الجارية سلاّمة إلى السيّد الجديد المقيم بمكة المكرمّة ، وانتقلت إليها تاركة مدينتها ، ومنْتزَعَة من أختهاريأء .. لتعيش ناعية حظها المنكود .. تارة تبكى ، وأخرى تغنى غناءً حزيناً ..

أمّا مولاها الجديد ، فكان رجلاً كريماً سمحاً ، أحسّ بمشاعر جاريته،

وقَدَّرَ فيها نُبْلَهَا ووفاءها ، وكانت داره بمكة مقصد الشعراء والأشراف ومحبى الغناء .. فجاءوا إليها من كل صوب ، ليسمعوا غناء الجارية المدينية ، فتستجيب بشعر لها حيناً وللآخرين أحياناً .

وكان من بين المترددين على الدار الزاهد الفقيه عبد الرحمن بن أبى عمّار الشهير بالقَس ، سمع غناء سلاّمة فافتتن بصوتها ، ولكنه ظل يُغالب هَواه خوفاً من أن يتسرّب إلى قلبه افتتانه بصاحبة الصوت نفسها ، فكيف به الزاهد العابد أن يضعف أمام صوت غير صوت ضميره !!؟ وكيف يتحمل وِزْرَ حبّ أحد غير الله ، ولكنه قدر ، والقدر تضعف أمامه إرادات البشر ، فاضطر أن يصرّح بحبه لسلاّمة في شعره ، وشاع أمره بين أهل الحجاز كلهم، منهم من يبرر وقوعه ، ومنهم من يسخر من ذيوعه ، ومنهم من أشفق عليه شروعه فيه .. وعندما تفشى السرّ ، لم يَعُدْ هناك مايمنع من كشف المستور ، وبعد أن كان يكتب أشعار حبّه على استحياء ، صاح منشداً تحدّيه لسائر الهامسين ، بأشعار مالبثت سلاّمة أن رفعت عقيرتها تنشدها

فقالا معاً :

مابال قلبك لايزال يهيمه ذِكَرٌ عواقب غيرهن سقام
إن التى طرقتك بين ركائب تمشى بمزهرها وأنت حرام
لتصيد قلبك أو جزاء مودّة إنَّ الرفيقَ له عليكَ ذمامُ
باتت تعلّلنا وتحسبُ أننا فى ذاك أيقاظٌ ونحن نِيام
حتى إذا سَطعَ الصَّباحُ لِناظرٍ فإذا وذلك بيننا أحلام

ولم ينقطع عن قول أشعار الوله بها وتخليد حبهما .. فيقول :

ألا قلُ لهذا القلب هل أنت مُبْصِـرُ وهل أنت عن سلاّمة اليوم مقصر؟
ألا ليت أنى حين صارت بها النـوى جليس لسلمىَ كلـما عجّ مِزْهَرُ

ويواصل تحدّيه وإلحاحه فى البحث عن مناصرٍ لقلبيهما ..قائلاً :

سَـلاّمُ هل لى منكم ناصـــر أم هــل لقــلبى عنكم زاجـر
قد سمع الناس بوجدى بكم فمـنــهــم الــلائـم والغـــاذر

لكن هذا الحب العفيف ظل على حرارته طالما بقيت سلاّمه فى مكة ، ومالبث أن وُئِدَتْ راوبطه بتكرار خروجها من مكّة هذه المرة ، ولم يكن من سبب آخر إلاّ لكونها جارية أيضاً !! ولكن خروجها لم يكن للعودة إلى مرتع صباها .. فإلى أين ؟!!

بعث أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك بمن يشترى له جاريتين من أرض الحجاز ، ورأى المبعوث بعينه الفاحصة اثنتين تحوزان حتماً إعجاب سيّده الخليفة ، هما سلاّمة وحُبابة .. وهكذا بيعت للمرة الثانية مُقْتَلَعَة من موطن حبّها .. فَهُجِّرَتْ قهراً من مكة إلى دمشق لتحيا حياة جديدة نظير عشرين ألف دينار قبضها مولاها السابق .

ولقيت الجاريتان الإعجاب المتوقع من الخليفة الأموى ، وقد كان من المتوقع أيضاً أن تتساويا فى الحظوة على الأقل عنده ، لكن اختلف نصيب كل منهما فى طبيعة الاستحسان ، فلقد كان إعجاب يزيد بصوت وغناء سلاّمة ، يقل حتماً عن إعجابه بجمال حبابة المبهر وقدّها الممشوق، وإذا ما أضفنا لتفضيله حبابة على سلاّمة ، دُربةَ الأولى على أفانين الإغراء وأوضاعه ــ ما دهشنا لإخراج سلاّمة من زمرة الجوارى الحظايا .

وفي طريقها إلى دمشق ، لم تستطع أن تخفي لوعتها للفراق ، وتعلّقها بأهل الحجاز جميعاً ، وغنّت لأهل السقاية على مشارف مكة قائلة وهي تبكي :

فارقوني وقد علمت بقيناً ... ما لمن ذاق ميتة من إياب

إنّ أهل الخضاب قد تركوني ... مولعاً موزعاً بأهل الخضاب

أهل بيت تتابعوا للمنايا ... ماعلى الدهر بعدهم من عتاب

وظلت على نحيبها حتى غابت عن الناس إلى طريق دمشق المجهول .

وكان أول ماغنّت أمام الخليفة الأموي .. قصيدة لحبيبها المهجور قسّ :

ألاقل لهذا القلب هل أنت مبصر

وهل أنت عن سلاّمَةَ اليوم مقصر

ألا ليت أني حيث صار بها النوى

جليس لِسَلْمَى كلّما عجّ مزهر

وأنّي إذا ما الموت زال بنفسها

يزال بنفسي قبلها حين تقبر

إذا أخذت في الصوت كاد جليسها

يطير إليها قلبه حين تنظر

وفي قصر يزيد ضمت مجالسه شعراء الشام وآخرين يستقدمهم من الحجاز، فكان من بينهم الكُميت والأحوص ، ومن المغنين الغريض وغيرهم ، وحازت سلاّمة بغنائها استحسان الجميع وإعجابهم ، وتبارى الشعراء في إطرائهاوالتعبير عن طبيعة مشاعرهم نحوها ..

وسأل الخليفة الشاعر الكميت : « يا أبا المستهلّ » هذه جاريةٌ تباع ، أفترى أن نبتاعها؟

فأجاب الكميت : إى والله ياأمير المؤمنين ! وما أرى أن لها فى الدنيا مثلاً .

قال يزيد : فصفها فى شعر .

وانطلق الكميت مبدعاً !

هى شمس النهار فى الحُسْنِ إلاّ
أنــها فُــضِّــلَتْ بقــتل الظِّـرَافِ

رَخصةٌ بَضةٌ ، رخيـــمٌ لَعُوبٌ
وَعْـثَـة المتــن شَحــنة الأطــراف

زانـــها دلّهـــا وثغـــر نــقىّ
وحــديــث مرتــلّ غيــر جــاف

خلــقت فوق منــية المتــمنىّ
فاقبــل النــصــح يابن عبد مناف

فقال الخليفة مستحسناً وهو يضحك : قد قبلنا نصحك يا أبا المستهلّ ، وأجزناك بألفىْ دينار .

وفى جلسة أخرى لمجلسه حضرها الأحوص ـ استمتع الخليفة إلى قصيدة كشفت عن مدى الإعجاب الدفين لدى الشاعر بسلاّمة التى كانت ـ كالعادة ـ جالسة وراء ستار ـ حيث قال :

أَلاهـاج التـذكرّ لى بسقاماً ... وَنكْسَ الـداء والوجَعَ الغراماَ

سلاّمة إنـهـا همىّ ودائى ... وشرّ الداء ماطَحـن العظاماَ

فقلتُ له ودَمْعُ العين يجرى ... على الخَدَّيْن أربعـة سجاما

عليك لها السلام فَمَنْ لِصَبّ ... يبيتُ اللَّيْلَ يهذى مُسْتَهَا ما ؟

فطرب يزيد وبكى ، ثم أمسكت سلاّمة بمزهرها ، وغنّت الأبيات بين طرب الخليفة وبكائه .. وألحّ على سلاّمة أن توضّح له حقيقة مابينهما .. ليطمئن قلبه ، لا لغيرة منه عليها ، وإنما لفضوله وتفضيله ألا يشغل قلب جارية من جواريه أحد إلاّ بإذنه، فباحت بقصيدة بعثها الأحوص إليها عند وصولها دمشق حديثاً .. وأنشدتها له عن ظهر قلب :

عاود القلب من سلامة نصْبُ ... فلعينىّ مِنْ جَوى الحُب غـرب

ولقدقلت أيها القلب، ذا الشّوْ ... ق الـذى لا يـحبّك حـبّ

إنـه قـد دنـا فراق سُلَيـمْىَ ... وغداً مطلبُ عن الوصل صعب

ولربما ظنت سلاّمه أنها عندما تصدق القول مع موْلاها الخليفة، يزداد قدرها لديه ، أو تستثير غيرته عليها ، لكن هذه الوسيلة الخلقية الساذجة ، لم تحرك يزيد الغارق لأذنيه فى حب حبابة ، ولم يأبَهْ بها ، وإنما ظلّ ملازما لحبابة حتى ماتت، ولحق بها نتيجة علّة أصابته بعد حزنه الشديد . ولمّا وورى التراب انفجرت سلاّمة بالبُكاء نائحة الخليفة :

لا تَـلُمـنَا إنْ خشـعـنا ... أو هَـمـنَا بخـشـوع

للـذى حـلَ بنـا الـيو ... م مـن الأمـر الفظـيع

قـد لعمـرى بت لـيـلى ... كأخـى الـداء الوجـيـع

كلــمـا أبصــرتُ ربــعاً   خـــالياً فاضــت دموعــى
قــد خــلا مــن ســيِّدٍ كا   ن لنـــا غـــير مُضــيِّــع

وحاول الوليد الخليفة الجديد ، أن يخفف من حزنها على أبيه المتوفى ، فقال لها : ياسلاَّمة ، رحم الله أبى وأطال عمرى وأمتعنى بحسن صوتك !!

«بم كان أبى يقدم عليك حبابة ؟

قالت : لا أدرى والله ! .

فقال : ولكننى أدرى !! ذلك بما قسم الله لها .

قالت : ياسيدى أجل . »

بهذا الاقتضاب فى الإجابة ، أبانت عن استسلامها للمقدّر لها وقناعتها بنصيبها القليل ، ورضاها أن تكون جارية عفيفة ، لا أن تكون حظيّة بدون قيود .. حتى ولوْ انكسر قلبها النابض بالحب العفيف.

شَـــــارية

هذه جارية أخرى ، لم تنل حظّها الذى كانت تستحقه مثل زميلاتها الحظيات ، برغم تمتّعها بمثل ما تميزن به من جمال الصوت ودقة الأداء ، بل زادت عليهن صغر السنّ ونضج سمات أنوثتها!!اماسبب أوما أسباب ذلك؟ ألأنّ نها كانت جارية لمولى سيئ الحظ كالأمير إبراهيم بن المهدى ، أم لأن صغر سنّها لم يتح لها حنكة من يكبرن عنها سنّا من الجوارى فجاروا على نصيبها من الحظوة ، أم أن عيبا فيها ، إذ لم تستطع ابتداع الشعر الذى تغنيه

فصارت تغنى قصائد الآخرين . فخفض هذا العيب من درجة حظوتها بين الأخريات ، أم ترى أن وجودها فى زمن النجمة اللامعة الكاسحة لمعاصراتها من الجوارى هو الذى كسف شمسها بجانب شمس عريب ، أم يجوز أن عدم درايتها باستغلال المنافسات التى جرت من أجلها ، وقطف ثمار المؤامرات التى حيكت لانتزاعها هو الذى أبقاها عند مستوى الجوارى غير الحظيات ؟!

لا يمكن أن نُغَلِّبَ سبباً على غيره من الأسباب ، كما لا يصحّ أن نأخذ هذه الأسباب جميعها لتفسير اقتصارها على الدرجة الثانية دون الأولى ، لأنها لم تجتمع عليها فى وقت واحد ، وكان بإمكانها اكتساب الدروس من كل عامل من هذه العوامل المسببة لزحزحتها عن الصدارة . لكنها لم تكن على المستوى الذى يستوعب كل موقف على حدة ، وتستخلص الدرس المستفاد منه لما سوف يقابله من أ شباهه فيما بعد .

وشارية كجارية ليس معروفاً نَسَبُهَا وإن كان معروفاً أصلُها ، فهى قرشية الأصل ، ولقد سبب لها أصلها القرشى أكثر من مشكلة ، ذلك لأن القُرشيين لا يصح ولا يرضى أحدٌ بأن يُسْتَعْبَدُوا أو يُسْتَذَلُّوا من بعد أن أسلموا ، ولذلك فقد أثيرت حولها الشائعات بأنها اختُطفَت أوسُرقت من أمها القرشية بعد موت أبيها، ولم تذكر الشائعات مَنْ هو أبوها ومن هى أمها ، وإنما جىء بها إلى البصرة لتشتريها سيدة هاشمية ، ولم تكن قد تعدت السابعة من عمرها ، وعرضتها هذه السيدة للبيع بعد أن عجزت عن الإنفاق عليها ، فكان من نصيبها أن اشتراها عمّ الخليفة المعتصم إبراهيم بن المهدى بثلاثمائة دينار ، وثمانية آلاف درهم على أكثر الأقوال .

شرع الأمير يعلّمها فنون العزف وأصول الغناء ، فأجادت العزف والحفظ والإلقاء ، وعجزت قريحتها عن التأليف والتقليد ، ومع ذلك زادت شفقته بها ، ومغفرته لها هذا العجز ، فكان لايناديها إلاّ بيابْنَتى إعزازاً لها ، ورفعها إلى مصافِ ابنه الذى من صُلبه « هبة الله »وكانَ يقول لابنه لمّا فاز بها «كأن الخلافة طَلعت علىّ ، إننى أتوسم فيها النجابة والذكاء . »

وكانت هى أيضاً وديعة هادئة ، حلوة الحديث ناعمة الجواب ، تفجّرت أنوثتها فى الرابعة عشرة من عمرها ، وزاد حسنها فتنه، وجمالها ، ولم يستطع إخفاء تفضيله لها على سائر جواريه ،كما لم يُخْفِ سعادته بها وهى تجالسه وتسامره أمام كل مجالسيه من الضيوف .

وظل يتباهى باقتنائه لها ويفاخر السامعين لغنائها بأستاذيته لها . تارة تغنى له وحده فى حرّاقة بنهردجلة .

وكأس شربتُ على لَذّةٍ — وأخرى تداويتُ منهاَ بهاَ
لكى يعلمَ الناسُ أنىّ امرؤ — أتيت الفتوة من بابهـا

فيخرج على ضيوفه فى اليوم يحكى عمّا غنته له من شعر الأعشى ، ويزيد ويعيد مادحاً حُسْنَ الأداء .

وتارة تهيج خواطرها للغناء فتندفع تغنى فى الدار لحناً من ألحان إبراهيم الموصلى وأشعاره .. فتبدع وتفوق صاحبها :

ضنّت سعـادُ غداة البين بالزّاد — وأخلَفَتْكَ فما تُوفى بمعياد
ما أَنْسَ لا أَنْسَ منها إذ تودّعنا — والحزنُ منها وإن لم تُبده باد

وكان يثب ليمسك بفِيها، ويعلق بالقول مستحسنا: « أنت والله أحسن من الغريض وجهاً وغناءً ! فما يؤمنّنى عليك ؟

وبعادته المستهجنة ، كان يحكى لأصحابه ما يجرى وما قاله لها وما قالته له ، حتى إن نزاعاً شبّ بين اثنين من علْية القوم ، بسبب تنافسهما على التودد إليها .. هما علىّ بن هشام أحد أمراء الشعر وقائد من قادة المأمون ، والثانى هو وزير المعتصم عبد الوهاب بن على . وبالرغم من اختلافهما وتنازعهما ، فإنهما توافقا على الحقد على إبراهيم بن المهدى لاقتنائه هذه الجارية الناضجة ، الأمر الذى دفع الوزير أن يدبرّ مكيدة ينتزع بها شارية من دار ابن المهدى ، فماذا دبرّ ؟

لقد بذل وزير المعتصم أقصى جهده فى وصف شارية للخليفة المعتصم، وحببّ إليه شراءها ، وظلّ يلحّ على أمير المؤمنين حتى ارتضى أن يطلب شراءها من عمه مقابل ثمنٍ لها وصل إلى سبعين ألف درهم ، وأرسل إليه ابن سهل وسيطاً لعقد الصفقة ، لكنه قوبل بالرفض وأراد أن يستميله إلى جانبه .. فأمر شارية أن تغنى .. فانطلقت بالغناء :

أسرى لخالدة الخيال ولا أرى
شيئاً ألذّ من الخيال الطارق ؟
إن البليّة مَنْ يُمَلُّ حديثه
فانقع فؤادك من حديث الوامق
أهْوَاك فوق هوى النفوس ولم يزل
مُذْ بنتَ قلبى كالجناح الخافق
شوقاً إليك ولم تجاز مودتى
ليس المكذب كالحبيب الصادق

فذهل ابن سهيل لقدرة شارية على التغنى بواحد من أعسر الألحان وأشقّ أشعار جرير فى الأداء ، وهنا انتهز فرصة ذهول ابن سيهل وقال له : «ياسهل : هذه شارية !! وهذه التى عاتبتنى عليها فى أن أبيعها للخليفة بسبعين ألف درهم ، لا والله ! ولا هذه الساعة الواحدة بسبعين ألف دينار !!»

لكن الخليفة المعتصم الغاضب أصرّ على نفاذ طلبه واقتناء هذه الجارية ، وطلب من وزيره عبد الوهاب بن على أن يدبرّ حيلة ناجحة لانتزاع شارية من عَمه ابن المهدى . وبعد لأى فكّر الوزير فى حيلة محبوكة ، ذلك بأن ظهرت فجأة امرأة تدعى زهرة بنت كلاب ، وادّعت أنها من قريش ، وزعمت أنها أم شارية التى سرقها منها النخاسون وهى فى سن السابعة ، وأصرّت على زعمها وعلى ضرورة الدخول على الخليفة المعتصم لتقديم شكواها ، وكان يساندها فى السرّ الوزير بسلطانه وقربه من أمير المؤمنين ، فاستأذنه فى دخول أم شارية المزعومة ، وفى الوقت نفسه تظاهر بصداقته لابن المهدى ، وأنه يعمل لصالحه وتجنيبه غضب الخليفة ابن أخيه ، ولما بلغه أن المرأة قد فتح لها الخليفة بابه ، فطن إلى ما يدبرّ له ، وأراد أن يفوّت فرصة الإيقاع به وبجاريته ، ففكر هو الآخر فى حيلة عاجلة :

تصدّق بجاريته على ابنته «ميمونة» . ثم ذهب إلى القاضى ابن داود ، وأحضرعشرين شاهداً ، كما بعث بمن يحضر شارية ، وأعلن أمام الجميع عتقه لها ، وزواجه منها نظير مهرٍ لها قدره عشرة آلاف درهم ، والتفت إلى شارية سائلاً : هل رضيت بى زوجاً لك ياشارية ؟

فقالت عروسه : « نعم ياسيّدى ! والحمد لله على ما أنعم علىّ به .»

وكانت مفاجأة للوزير الذى بعثه الخليفة المعتصم إلى عمه ليبلغه تأييده

المرأة القرشية فى نظر قضيتها ، وضرورة خروج شارية من لدنه إلى من تثق به من أهله حتى يتم نظر دعوى ومعرفة مدى صدقها ، وكانت مفاجأة ابن المهدى للوزير أن قال : «قل لأمير المؤمنين إنى أعتقت شارية وتزوجتها فى دار القاضى أمام عشرين شاهداً وأبْلغْه السلام .»

فأُسْقِطَ فى يد الخليفة بعد أن سمع النبأ . لكنه لم يترك أذنه ثانية لأحد ليُفْتِيَه بحيلة أخرى . ولم ينظر فى شكوى الأم المزعومة .

وأراد ابن المهدى أن يُكسب تصّرفه صفة شرعية ، فاشترى جاريته شارية من ابنته ميمونة بعشرة آلاف درهم ، وصار يُعاشر شارية معاشرة الأزواج بملك اليمين ، مع أنها اعتقدت أنها زوجته الشرعية .. لأن زوجها المظنون عندما مات .. طالبت بحقها بالميراث فى تركته ، فواجهها ذووه بحقيقة الخديعة التى وقعت فيها .

وماكاد عمّ الخليفة المعتصم يتوفى، حتى بادر بشراء شارية ، وكان المنتظر أن يبتسم الحظ للجارية التعيسة ، لكنها ظلت على وضعها مغنية تطربه حتى مات .

فاقتناها بعده الخليفة الواثق ، وكان محبًّا للغناء .. يطارحها وتطارحه ، إلاّ أنها قنعت بهذا القدر من الحظوة، بل آثرت التراجع أمام تلميذتها « طباع » جارية مولاها .. فعلّمتها حتى برعت فى الغناء ، وأخلت لها الميدان ؛

وارتضت أن تكون أمينة على أسرار جوارى أسرة الخليفة دون إفشاء لها، فهل صارت بذلك محل ثقة ؟ إنها كتمت أسرار عشق الأمير ابن المعتزّ بالجارية سرّة ، وعشق خديجة بنت المأمون لخادم أبيها ، لكنها لم ترق إلى ثقة ائتمانها على أسرار الخليفة الحالى نفسه !! هذا هو الفارق البيِّن .

دَنَانِير

لقد سمع الكثير منّا الكثير عن دنانير، فقد فُتحت لها أبواب الصعود على سلّم الحظايا ، وكان بإمكانها بلوغ أعلى المراتب لدى مولاها الثالث أمير المؤمنين هارون الرشيد ، لولا أنها طُبِعَتْ على الوفاء ، فلم تنسَ مولاها الثانى يحيى بن خالد البرمكى ، وظلت على عهدها حافظة لذكراه .

لقد كانت فى البدء جارية بالكوفة لدى شاعر مشهور هو محمد بن كناسة ، وبطبيعة الحال فى تلك الأيام ، كانت داره مقصد الشعراء والمغنّين ، لمجالسته حيناً . ولمساجلة دنانير الشعر والغناء أحياناً .. منهم من كان يشاغلها دون طائل ، ومنهم من كانت تبادله شعوره بدون حائل .. لكن سواء كانوا هؤلاء أو أولئك .. فالكل قد التزم إزاءها جانب المساجلة القولية دون التطاول أو الملامسة .

ولدنانير أبيات تدّل على ما نقول ، فهى تردّ على أبى الشعثاء بالصدّ لهواه .. فتقول :

لأبى الشّعْثَاء حُبٌّ باطِنٌ ... ليس فيه نهضةٌ للمتُّهمْ
يا فُؤَادِى فَازْدَجِرْ عنه ويا ... عَبَثَ الحُبُّ به فاقْعُدْ وقُمْ
زادنى منه كلامٌ صائب ... ووسيلاتٌ المحبين الكَلِمْ
صَلِّ إنْ أحببتَ أن تُعطينى ... يا أبا الشعثاء للّه وَصُمْ
ثُم ميعادك يوم الحشر فى ... جنة الخلد إنِ اللّهُ رَحِمْ
حيث ألقاك غلاماً ناشئاً ... يافعاً قد كملَتْ فيه النعم

لكن شهرة مولاها الشاعر لم تتعدّ وقتها مدينة الكوفة ، لذلك ظلّت هى أيضاً محدودة الشهرة بالتبعية ، برغم جهدها المتواصل فى الغناء بألحان من ابتكارها .. حتى تسرّبت أخبارها إلى بغداد ، فأرسل الوزير يحيى البرمكى من اشتراها له ، لتنتقل إليه وتبدأ حياة جديدة مبهرة .. تضفى عليها من العزّ جمالاً ورشاقة ، وتزيدها من المعرفة ألواناً ومقدرة ثم تفتح فى عالم الغناء آفاقاً ميسّرة .. فتلتقى بمن هم فيه من أساطينه ، كإبراهيم الموصلى ، وإسحاق،وابن جامع ، ونجمة الغناء بَذْل .. وتشرّبت أسرار الإجادة من الموصلى حتى كان لا يناديها إلا بابنته ، وصنعت الألحان وجددت ففاقت غيرها ، وصارت آية يحيى الفنية التى يفخر بها على سائر أبناء وبنات عصرها من أرباب الغناء .. ويغار عليها من كل نظرات المعجبين ، فأجزل لها العطاء جزاءَ كل لحن تُغنّيه ، فبلغ الألفين من الدنانير .. لتصير قيمتها ضعف قيمة سائر المغنّين ، فصارت اسماً على مسمّى ، مثل الدنانير الأصلية التى لا تقبل التزييف .. لذا فإن يحيى البرمكى كان عظيم الثقة بها كما لوكان يثق فى نفسه ، ولم يدع فرصة لإثبات تفوّقها فى شتى مجالات الطرب إلاّ وقدّمها إليها ـ حتى ولو كانت الأشعار التى تنشدها على غير هواه ، وأبلغ شاهد على ما أنشدته من هذا النوع ، تلك الأشعار التى قيلت من قبل فى مدح الأمويين، فدعا المغنى المعروف باسم حَكَم الوادى ليحفّظها القصيدة ولحنها ، فأدته وفاقته بإنشادها :

ذكرتُكَ إن فاضَ الفُرات بأرضنا

وفاضَتْ بأعلى الرّقْمتَيْن بحارُهَا

وحـولِيَ ممّـا خـوّلَ اللـه نِعْمَـةَ

عَطـاؤُك منـهـا نوقـهـا وعِشَارُهــا

فجئـناك نـثني بالـذى أنـت أهْـلُه

عليكَ كما أثْنَى على الرَّوْضِ جارُهـا

إذا مِتَّ لم يُوصَلْ صـديقٌ ولم تَقُمْ

طريقٌ مِنَ المعروف أنـتَ مَنـارُهـا

فإذا تذكّرنا ما كان للبرامكة من مكانة ومعزّة فى قلب هارون الرشيد ـ قبل أن يطيح بهم ـ عرفنا إلى أى حد بلغ اختلاطه بهم، فكان كثير الزيارة لهم ، وكان لا يجد غضاضة من كثرة السهر لديهم ، يستمع ويطرب، ويختار ويُعجب ، ويجزل العطاء ، ويكيل الثناء .. حتى تململ ذووه ، فانتقدوه ونصحوه بالإقلال من زيارارته ، ودهشوا لانقلاب الحال .. فكيف يكون الخليفة المُزارُ زائراً !! فقال لهم : « مالى أرَبٌ فى دنانير إلاّ فى غنائها .. فتعالوا واستمعوا إليها ! فإن استطعتم عنها سُلُوًّا سَلَوْتُ معكم ! »

وتوجّه أعمام الرشيد إلى دار يحيى فسمعوا دنانير تغنى :

هذى دنانير تنساني وأذكرها وكـيف تنْسى مُحبّاً لَيْسَ يَنسَاها

أَعُوذُ بالله من هِجْران جارية أصبحتُ من حبها أهْذِى بذكراها

فاهتز الأعمام وطربوا ، بل صفقوا مكاشفة بالإعجاب ، وعذروا الرشيد فى التعلق بدنانير ، ورجوا زوجته ألا تُثقل على زوجها بالعتاب ، وهَدَأَتْ من غلوائها ، لكنها أضمرت فى نفسها أن تنسيه دنانير بطرائق الحريم ، فأهدت

الرشيد عشر جوار من أجمل جواريها ، وقبلت أن ينجب من كلٍّ منهن كيفما شاء .. وبالفعل أنجب من مارية المعتصم ، ومن الجارية مراحل ولده المأمون ، ومن فارهة ابنه صالح .. ومع ذلك هل سَلاَ الرشيد عن دنانير ؟ كلاَّ .. لقد ظلّ مفتوناً بها ، وظلّ مواظباً على زيارتها في بيت صديقه وصفيّه يحيى البرمكي .

لقد كان في استطاعته أن يشتريها من مولاها يحيى ، لكنه كان يعلم مبلغ حبّ يحيى لها وغيرته عليها ، فلم يرد أن يقطع عليه سعادته بها ، لما كان له من دالّة قاهرة عليه . ولما أزفت ساعة البرامكة ، وكشّر لهم الرشيد عن أنيابه ، فتكَ بهم وأبادهم ومحا أثرهم ، ثم أمَرَ بنقل دنانير إليه جبراً .

وفي قصر الخلد ، أرادها أن أن تغنّي كما كانت تصدح في دار يحيى من قبل ، وكان من المظنون أن تفرح الجارية بانتقالها تحت رعاية صاحب الأمر والنهي ، لكنها كانت على عكس المظنون ، وفاجأت الرشيد برفضها الغناء وقالت :

«يا أمير المؤمنين ! إنّي آليتُ ألاّ أغني بعد سيدي أبداً .»

وغلا الدّم في وجه الرشيد غضباً ، وأمر بصفعها .. فصفعوها وأهانوها ! واستنهضت على قدميها ، وأعطيت العود ، فأمسكت به وهي تجهش بالبكاء، وتحشرج صوتها بالغناء وسالت الدموع على خدّيها :

يا دار سلمى بنازح السّند   بين الثنايا ومَسْقط اللُّبَدِ
لما رأيتُ الديارَ قد دَرَسَتْ   أيقنتُ أن النعيم لم يَعُدِ

أدرك الرشيد بإحساسه الصادق ، أن دنانير ليست مجرّد جارية وفية

لذكرى مولاها الذى استذّل بعد عزّ ، وغُدِرَ به دون أية ذرة رحمة ، ليست مجرّد مغنية تطرب وتدخل السرور على النفوس ، وإنما هى مُحِبَّةٌ له ، متيمة بحبه ، عاطفة معه ، حافظة لذكراه ، باقية على العهد ، فاقدة كل شيء من لذائذ الحياة ، كل ما فى قصر الخلد وكل قصور الخلفاء لاتساوى شيئاً أمام مافقدته ، وترك فى قلبها كل هذا الأثر . أدرك الرشيد كل هذا ، فأدار وجهه عنها يائساً من استمالتها أوجلاء صوتها .. فأكبر فيها مشاعرها وإخلاصها .. وسرّحها بالحسنى لتختار أين تعيش وتقيم بأى أرض تطمئن إليها .

واختارت دنانير داراً من دُور البرامكة التى هُجِرَتْ وخُربت ، قانعة بما هنئت ، حتى البسمة فى وجهها بهتت وشحبت ، واستغرقت فى خضم الذكريات . لاتأمن لما تخبئه لها الأيام الآتية ، ولاتميّز فيها بين الطيّب والخبيث، ولاتستطيع انتقاء الإنسان النفيس معدنه من بين كل رخيص .

فلما منّ عليها الزمن بمُحبٍّ صادقٍ فى عشقه هو عُقيد الشاعر المغنّى، أشاحت عنه ، ولمّا تقدّم لخطبتها ردّته ، وصاغ لها من قصائد الشعر أرقها وأصدقها :

يا دنانيرُ قد تنكّرَ عَقْلى ... وتحيّرت بين وعْدٍ ومطْلِ
شغفى شافعى إليك وإلاّ ... فاقتلينى إن كنت تَهْوَيْنَ قَتْلى!
أنا والله والأمير وما آ ... مل من موعد الحسين وبَذَل
ما أحب الحياةَ يا أُخْت إنْ لم ... يجمع الله عاجلاً بِكِ شمْلى

فتذكرت ما حاق بمن صدقها حُبّاً ، وصرعوه شهيد حبّهما .. فاغتمّت ، وبالحسنى أشفقت على عُقيد ورفضته .. زاهدة فى أى حبّ

جديد .

وكما لم تنس بوفائها مولاها الثاني يحيى ، تذكّرها بالوفاء مولاها الأول الشاعر ابن كناسة بقصيدة يرثيها :

الحمدُ للّـه لا شريكَ لـه ... ياليت ما كـان مِنْكِ لم يَكُنِ
إن يَكُنِ القَوْلُ قَلّ فيك فما ... أفحمنى غيـرُ شـدة الحـزنِ

مُتَيّم الهاشمية

جارية نسبت إلى مولاها عليّ بن هشام ، قبل أن يقترن بها وتصير زوجته ، إنقاذاً لحبّه لها من براثن الخليفة العباسى المأمون .

ولم يكن حبه لمتيّم يُقَدَّرُ بثمن ،مهما رصد له الخليفة من دنانير !! صحيح أنه اشتراها من المراكبى تاجر الرقيق الشهير بعشرين ألف درهم ، ولكنه عُنى بها وأدبّها وجاء لها بأكفأ من علّمها العزف والغناء ، وسبرغور مواهبها الواعدة ، فضلاً عما تمتعت به من صُفْرة وجه وحُسْن معشر ، شأنها شأن سائر جوارى البصرة العراقيات ، فتمكّن حبّها من قلبه ، وصارت صدارة حظايا ابن هشام معقودة لها .. بعد أن كانت جارية لابنة تاجر الجوارى اللّبانة المراكبى .. مجرّد جارية تسلّى ابنة مولاها النخّاس .

ولم تكن صدارتها للحظايا فاتحة سعدٍ لها مثلما كانت شبيهاتها فى قصور الخلفاء ، لأن عَليّ بن هشام هو مجرد ثرى من أثرياء البصرة ، يهوىٰ اقتناء الجوارى ، ويستمتع بمخالطتهن ، ويطرب بغنائهن .. فيقيم فى داره مجالس ساهرة لقصّاده من أبناء وبنات الفن السماعى ، لكنها مجالس تفتقد هيبة ضيوف الحكام وعظمة أمراء المؤمنين . ولأن «مُتَيّم » أحبّت مولاها حبّاً

صادقاً ، لم تخنه أو تتصل بغيره من المغنين وأهل الفنون ، واقتصرت على تبعيتها له ، فصارت حظية لسيّد غير مرموق .

لكن ابن هشام كان لا يبخل بمتيّم على الخلفاء والأمراء ، إذا ما دعاها أحدهم للغناء بقصره ، وكان ممن دعوها كثيراً إلى قصره الخليفة المأمون ووليّ عهده المعتصم ، وكان يواظب على مجلسيهما إبراهيم بن المهدى و إسحاق الموصلى ، ويسجّل تاريخ الغناء عليهما أنهما سرقا بعض ألحان متيم عنوة أوخلسة .. مثل :

لزينبَ طيّفٌ تعتريني طوارقه
هُدُوًّا إذا ما النجم لاحت لواحقه

ومثل : فلا زلْن حسْرَى ظُلَّعاً لِمْ حملنها
إلى بلدٍ ناءٍ قليلِ الأصادق

ولا ذنب لى إذْ قلتُ إذْ نحن جيرة
أثيبى بِوُدٍّ قبل إحدى البوائق

كما يسجل التاريخ مواقف متشددة للزوج ابن هشام ، دفاعاً عن ألحان جاريته الموهوبة ، فكان حارساً مجتهداً لأعمالها ، حتى تسبب ذلك فى وقوع خلافات ومشكلات بينه وبين ابن المهدى و إسحاق .

وفى مرة من هذه المرات قال له إسحاق : « اختر واحداً من اثنين : فإما أن تعطينى جوادك الأشهب القصير فأطيبَ به نفساً ... »

فقاطعه ابن هشام : « جوادى الأشهب !! إنه قصير حقّا ، لكنه نشيطٌ و قوىٌ، وغير هذا وذاك فهو عزيز علىّ كريم . »

وتلقّف إسحاق رفضه قائلا : « إذن .. فلا مفرّ أمامك من الاختيار الثاني. » سأله : « وما هو » ؟ أجابه إسحاق مهدّداً : « سأدّعي أن لحن ـ فلا زِلْنَ حَسْرَى ظُلّعاً لمْ حَمَلْنَها ـ لي ، وأنك سرقته مني ! أفتراك تقول إنه لمتيمّ وأقول إنه لي ، و يأخذون بقولك ويتركون قولي ! ؟ »

فأطرق ابن هشام يفكرّ مهموماً ، لأن جواده عزيز عليه ، لكن اللحن أعزّ لديه وأكرم ثم هزّ رأسه قائلا : « لا والله ! لا يصدّقني الناس ويكذبونك!» ثم التفت إلى غلامه يأمره قائلا : « قدّم الجواد إلى منزل أبي محمد بسرجه ولجامه .. لا بارك الله له فيه ! »

ومع ذلك ، لم يتورّع إسحاق عن التغني باللحن دون ذكر صاحبته الحقيقية ، ولم تتوقف محاولات ابن المهدى والموصلي الحاقدة من تشجيع الخليفة المأمون على اقتناء متيّم نفسها في قصره ، ولمّا تسرّب إلى علم ابن هشام ، تحيّر في اتخاذ قرار ينقذ به أسيرة قلبه متيّم ، فهو بطبيعته مسالم ، ولا يحب ألا يغضب أمير المؤمنين ، أو يحدث بينه وبين الخليفة خلافٌ أو نزاع . وهو في الوقت نفسه لا يستطيع أن يفرّط في أثيرة قلبه « متيم » لا يمكن أن يخالف ما يمليه عليه قلبه .

ولكن كيف السبيل إلى استرضاء الجانبين ؟ ..

لا حلّ إلاّ أن يعتقها ويتزوجها ، وعندئذ لا يحق للمأمون أن يطمع في حليلة له . وبالفعل .. أعلن ما فضّله واختاره .. وصارت متيمّ الهاشمية زوجة ، لا ككل زوجاته ، بل أقربهن إلى قلبه ، وأسقط في يد المأمون ، فكفّ عن أن يسلم أذنيه لجليسيه الحقودين ، لكنه لم يستطع أن يصفّي قلبه

نحوه ، وكلما شاع خبر إنجاب وليد من متيمّ لابن هشام ، طفا كُرْه المأمون له إلى أن بلغ ما أنجبته «متيّم » لزوجها ثلاثة ذكور، هم : محمد، وأبوعبدالله، وهارون ، وبنتاً هي صفية .. وهنا طفح الليل بالخليفة فقرّر التخلّص منه ، واغتيل في ليل .

حزنت « متيّم » على فقد زوجها حزناً شديداً ، مما نفّر المأمون من التفكير في اقتنائها في قصره ، بل إن أحداً غير زوجها لم يجرؤ على معايشتها أو الاقتران بها .

ومع ذلك لم يكن يخلو مجلس من مجالس المأمون من متيّم !! لكن بدون أن تكون هي نجمته المفضلّة .. إلى أن وافته المنيّة .. فضم المعتصم كل جوارى ابن هشام ، لكنه لم يستطع أن يمتلك متيّم مثلما عجز سلفه المأمون عن تحقيقه .

وكما لو أنه يريد أن ينتقم منها لعجزه عن امتلاكها ، فكان يعاملها في مجالسه بنوع من السوقية ، فيجذبها من إزارها ، ويخطف البنفسج التى كانت تعتاد أن تتحلى به بوضعه فى كمّها ، فضلا عن التفوه بالكلمات والدعابات الخليعة..

وهنا يحق لنا أن نزن مسلكها بميزان العدل .. فهى مهما تضررت وتمنّعت ، فهى جارية فى الأصل ، بخصالها المتناقضة ، وهو الحاكم الآمِر النّاهى ، الذى يقوى على ضعفها ، الذى يحطّم تماسكها فتتهالك ، وانجرفت فى حياة سمتها التودد والتعاطف بلا فُحش أو سقوط .

ولم تفارقها نغمة الحزن فى كل ما اضْطُرّت إلى إنشاده بين يدى المعتصم ، حتى شاع عنها اسم النائحة زعيمة النائحات ..

فعندما أمرها بالغناء بعد قدومه بغداد .. أنشدت من تلحينها :

هــل مســعــد لبــكــاء ... بَــعــبْــرة أو دمــــاء ؟
وذا لفَــقــدْ خــليـــلٍ ... لــســادة نجــبـــاء

ومالبث أن ضاق بهذا اللحن ، فأشار لها بالتوقف وطلب أغنية غيرها فغنّت :

أولئك قومـى بعــد عزّ ومنــعـة
تفــانوا ، وإلاّ تذرف العين أكمـد

واغرورقت عينا المعتصم بالبكاء .. فقال متوعداً : « ويحك ! لا تغنّينى فى هذا المعنى ! » فغنّت :

لا تأمَنِ الموت فى حلٍّ وفى حَــرَم
إنّ المــنايـا تغــشّى كــلِ إِنْســَانِ
وَاسْلُكْ طريقَكَ هوناً غيـر مكتـرثٍ
فسوف يأتيــك ما يمــنى لك المــانيِ

فانخرط فى بكاء أليم و يرجوها : « كفى ! و غَنِّ غيره .»

وعاودت الغناء الحزين :

« ذهبْتَ من الدنيا و قد ذهبت منى ... »

فبادرها متلهفاً : « أمسكى ! أمسكى ، و الله لولا أنى أعلم أنك إنما غنّيت بما فى قلبك لزوجك ، وأنك لم تريدينى لقتلتك ! » وصاح بالخدم!

«خذوا بيدها فأخرجوها . »

وخرجت من يومها ، فلم يستدعها ثانية كما كان يعد ، وظلت حزينة ترثى بالشعر ابن هشام ، وتهيم على وجهها ليلاً ونهاراً ، وهى تردد

كيف الثواء بأرضٍ لا أرَاكَ بها
يا أكثرَ النّاسِ عندى متعةً ويَدا

وتطوف بقصر ابن هشام المهجور ، وقد أغلق بابه وامتلأ فناؤه بالمزابل، وغَطّى الترابُ كُلَّ المنافذ والجدران ، وشهقت تلك المرة وقالت

يا منزلاً لم تُبْلَ أطلاله ... حاشا لأطلالك أن تبلى
لم أبكِ أطلالك لكننى ... بكيت عيشى فيك إذْ ولىّ
قد كان لى فيك هوى مرّة ... غيَّبَهُ التُّرْبُ وما هلاّ
فصرتُ أبكى جاهداً فقده ... عند ادّكارِى حيثما حَلاَّ
فالعيش أولى ما بكاه الفتى ... لابدّ للمحزون أن يَصْلَى

ثم هوت إلى الأرض فى غيبوبة ، أسلمتها إلى مرض عضال ، فَضمرت حتى هلكت ضحيّة الحقد وفساد النفوس ، لذلك فإنها لم تنعم بحظوة الخلفاء ، لتفضيلها الإخلاص لزوجها من عامة الناس ، وبقائها مخلصة لذكرياتها الحزينة .

عُبَيْدة الطُّنْبُورِيَّة

هل سمعت عن جارية بلا سيّد ، لا مولى لها ؟! هل خشيها السادة فانسحبوا بعيدين عنها ، أو أن ثمنها قد ارتفع ارتفاعاً عجز عن دفعه أغَنى الأغنياء .. حتى الخلفاء ؟! هل يعقل أن عصراً ساد فيه نظام الجوارى والنّخّاسين ، يُسقط من حسابه واحدة من الجميلات المغنيات ، فلا يدخلها فى زمرة الجوارى ، أو أن عبيدة تلك كانت على قدر كبير من التمرّد والشرود اللّذيْنِ لا يتفقان مع سيطرة السادة وتحكماتهم ؟ !! وربما يردّ باستدراك على ذلك .. هو: مَنْ مِنْ النساء من لاترضى أن تعيش فى كنف رجل .. أياً كان هذا الرجل سيّداً كان أم زوجاً أمَ حتى تاجرَ جوارى ! ؟

ولم تكن عُبيْدة واحدة من الاعتبارات السابقة إلاّ كونها امرأة ، وامرأة بكل المقاييس الأنثوية ، وذات صوت عذب رقراق بمقاييس ذلك الزمن ، وقيل إنها كانت ابنة لرجل بسيط اسمه « صباح » ، وكان الأبُ مولًى لسيّد غسّانى هو « أبو السمراء » ولكن الصّلة بين الأب وبنته عبيدة قد انقطعت بدون سبب مؤكد ـ موت الأب أم هربها منه ـ وكلا السببين يؤدى بالفتاة الفقيرة الصغيرة قليلة التجارب إلى المروق والضياع ، فكيف لم تقابل فى طريقها من يُلين قناتها ، أو يزجرها و يحصرها فى دار أو قصر يرتع فيه شبيهاتها من الجوارى الأليفات ! ؟ ألم تسمع بالنعيم والهناء الذى ترفل فيه هؤلاء التابعات الخانعات ! ؟ لا شك أن أخبارهن قد ترامت إليها ، ولم تغْرِها بالانطواء والعيش الرخيّ .. فظلّت تألف الشقاء ، وتستريح للتسكع فى الطرقات تعزف على طنبورها وتغنّى ، وتمتلئ ثقة بنفسها كلما رأت مغنيات

مثلها يتحلَّقْنَ حولها ليُردِّدْن مقاطع غنائها بالطنابير .. فمن ذا الذى اختار لها هذه الآلة أو علمها استعمالها؟

لقد كان لأبيها صديق يقال له : الزبيدى ، يبقى على ودّه ، فيداوم على زيارته ، وكان ذلك الصديق المدعو بالزبيدى يجيد العزف على الطنبور .. والطنبور آلة من آلات الطرب الشعبية البسيطة ، عمادها ثلاثة أوتار على علبة مستديرة مجوّفة و يد طويلة تشدّ عليها الأوتار ، وتضبط بمفاتيح خشبية، ولم يكن الزبيدى يجد مَسْلاَتَهُ وهو يزور صديقه صباح ـ والد عبيدة ـ إلاّ فى الغناء و العزف ، مما حاز إعجاب الفتاة الصغيرة عبيدة ، ولمّا لمس فيها ميلا لمحاكاته ، أخذ فى تعليمها فنه ، فأجادت و فاقت أستاذها .. لكنها ظلّت على صلة به تستزيد و تعيد أغنيته العاشقة :

لو جُزَّ بالسَّيْـــفِ رأســـى فى مـــودَّتِهَا
لمال لاشــك يَهْــوِى نــحــوها رأســـى

وأغنيته

سرَتْ لعيــنك سَلْــمَى بعـــد مَغْنَاهــا
فبتَ مُسْتَوْهِناً مِــنْ بَعْدِ مَســـــراهـــا
فقلتُ : أهــلاً و سهلاً ، مَنْ هَدَاكَ لــنا
إنْ كنــتَ تمــثــالها أو كُنْــتَ إياهــا ؟

ولمّا اضطرّت إلى هَجْر بيتها ، انطلقت إلى الطرقات والمجالس العامة ، تحتّك بجمهور السائرين أو الجالسين على قارعة الطريق ، وتسمع كلمات الاستحسان وهمسات الإعجاب البرىء والخبيث عـلى السواء ، فتعطى لأذنيها قسطاً من والراحة ، ولسائر أحاسيسها بقية أقساط الاستمتاع والإطراء

والراحة أيضاً !! حتى شاعت عنها صفة الصُّعْلَكة ، وأنها رائدة المغنيات الصُّعلوكات تيمّناً بالشعراء الصعاليك ، وردّ الفعل الحتمى لهذه الشائعة التفاف الشبّان الماجنين حولها ، وانفضاض أشراف القوم وعليتهم عنها .. خشية المساس بسُمعتهم ، وصار ثبوت حالة الاستماع إليها بمقام الفعل الفاضح فى الطريق العام ، ولم يستدعها أحد من الخلفاء فى مجالسه للغناء ، وإنما كانوا يلجئون إلى مغنّين آخرين ومغنيات أُخْرَيات لنقل ألحانها إليهم ، وكانت هى لا تعير ذلك أى اهتمام ، لا لزُهدٍ منها فى الشهرة ، و إنما غرق منها فى ملَذاتها التى أوْغلت فيها .. ولا أحد يدرى أكان ذلك تحدّيا منها لمجالس الكبراء الذين منعوها من دخولها ، أم لمرض يشوب تكوينها الأنثوى .. فاندفعت بنبقها تسعد وتطرب ، لكنها ـ والحق يقال ـ كانت تقنع بدينار أو اثنين أو بضعة دنانير تعود بها آخر جولاتها النهار كله .. هذا فى ذاته قدر من السعادة تتمم به متعتها !!

وعبيْدة بعد أن انتزعت برقع الحياء عن وجهها ، لم تعد تتكتم نزواتها، ولم يعد يهمها أن تستتر إذا ما ابتليت ، وكتبت على طنبورها بيتاً من أبيات الاعتراف :

كـــل شـــىء ســـوى الخـــيا   نـــة فى الحـــب يحتـمـــل

وكل ما كان يرضى غرورها كمغنية مُجيدة ، هو أن يقدّمها مغنو الطنابير عليهم فى الغناء .. كأستاذة فى الفن الشعبى الرائج ، وفى أحد مجالس العباس بن الرشيد التى كان يعقدها و يستضيفها فيها سرّاً ، قدّمها المغنّى « المسدود » على نفسه لتغنى:

كن لى شفيعاً إليكا إن خفت ذاك عليكا
وأعفنى من سؤالى سواك ما فى يديكا
يا من أعز وأهوى ما لى أهونُ عليكا

وصفّق الحاضرون إعجاباً ، ومع ذلك همس أحدهم وهو يصفق بقوله : « لوْ هذا من غير عُبيّدة !!

وفى مجلس آخر من مجالس الشريف محمد بن مزيد ، دعا أصدقاءه ليسمعوا غناء عبيدة . وحدث أن مرّ بهم أثناء الغناء إسحاق الموصلى ،فترامى إلى سمعه صوتها ، فعاتب المضيف لائماً : « أتعقد مثل هذا المجلس ولاتدعونى إليه ؟! » .

فقال ابن مزيد : « معذرة ، فأعلم أنك لا تنشط إلى مجلس ، وتتحاشاه ، وليتك تقبل ، فهذا أحبّ شيء لى فى الدنيا . » فتمتم قائلاً : « أقبل ، لأنى أشتهى أن أسمع عبيدة ، ولكن شريطة أن أظلّ مجهولا لديها . »

وأجابه ابن مزيد بالإيجاب ، فى حين كانت تواصل عبيدة الغناء:

قريبٌ غير مقترب ومؤتلف كمجتنب
له ودّى ولى منه دواعى الهم والكرب
أُواصلُه على سَبب ويهجرنى بلا سبب
وتظلمنى على ثِقَة بأن إليه منقلبى

ولم يتمالك إسحاق نفسه من الطرب ، فصاح طالباً كأساً من الشراب ، وأعاد الصياح بعد أن أفرغ فى جوفه ما فى الكأس ، وكلما استزاد الشراب

أعادت غناء الأبيات ، حتى بلغت مرات الإعادة العشرة ، ثم تسلل خارجاً يتمايل .

فمال أحد الحاضرين على عبيدة هامساً بالسؤال : « أعرفت من ذا الذى خرج ؟ » فنفت معرفتها به ، ولمّا أبلغها أنه إسحاق الموصلى ، انتشت وقد داخلها الفخر بما حققت ، وعلقت قائله : « أعدْت ما كنت أغنّيه مع ارتشافه كئوسه العشرة . »

لكنها فوجئت بعودة إسحاق ، فابتسمت له مختالة ، وأحس أنها عرفته ، فانتفض خائفاً وانطلق خارجاً وهو يقول : « نَغَّصْتُم علىّ يومى لا بارك الله فيكم !! »

ولم تكتم عبيْدة ضحكتها ، وكانت تتلفت بين الجالسين تستجمع منهم مفاخر تصفيقهم العالى لها . كما شكلت عبيْدة خطورة على السادة موالى الجوارى ، فلم تكتف برفضها أن يكون سيّد لها بعينه ، وإنما كانت محلّ إعجاب سائر الجوارى التابعات لسادتهن ، وكانت كل واحدة منهن تحدّث نفسها بأن تصبح عُبَيْدَةَ أخرى ، تنطلق حرّة فى الطرقات ، أو تتبعها كمولاة لا إقامة ثابتة لها !! ففى مرّة دعاها المغنى عمرو بن بانة ـ وكان معروفاً بكثرة جواريه ـ إلى الغناء فى قصره ، وحضرت جواريه غناءها ، حيث أنشدت من أشعار ابن الأحنف :

لم ألْقَ ذا شَجَن يبوحُ بحبّه
إلاّ حسبتك ذلك المحبوبا
حذراً عليك وإننى بك واثق
ألاّ ينال سواى منك نصيباً

وتعالت صيحات الجوارى وآهاتهن تأييداً وتشجيعاً ، وصفّقن راجيات استعادة إنشادها لهذين البيتين ، وتستجيب بالمدّ والترقيق مجوّدة ، ويرجّ تصفيقهن ردهات القصر طالبات ومصرّات أن تزيدهن طرباً ، فتلبّى مُميلة ومخفّضة ، وبالتدريج تعلو مردّدة : لم ألق ذا شجن يبوح بحبه . » حتى استثارت غيرة صاحب القصر المضيف ، و ينظر إلى جواريه غاضباً ، وما يلبث أن يدارى غضبه من عينيه ، حتى لمست عبيدة ما يعانيه عمرو ، فعجّلت بالانتهاء من الغناء ، وهمّت بالانصراف فى حين ينقدها الداعى الدينارين المعهوديْن .. فقبلتهما شاكرة ، لكنها اضطربت دهشة من صيحة سيّد الجوارى ، يأمرهن بعودتهن إلى غرفهن .. و لمّا ظَلَلْنَ على وقفاتهن فى أمكنتهن ، صاح بهن زاجراً ، وهو يلوّح لهن بسوْط مهدداً .. فانصرفن وهن منكّسات الرءوس .

وهكذا ظلّت عبيدة الطُّنبورية على حالها من الترحال والإنشاد . منبوذة من ذوى المكانة علناً ، و يقصدونها سرّاً .. وتبقى أستاذة يعترف لها أهل الغناء بالأصالة والتقدّم .. حتى وافتها المنيّة .. فرثاها بعض الشعراء دون ذكر أسمائهم .. وكان من أكثر أبيات رثائها صدقاً :

أمسَتْ عُبَيْدَةَ فى الإحسان واحدة

فالله جار لها من كل محذور

من أحسن الناس وجهاً حين تبصر ها

وأحذق الناس إنْ غنت بِطُنْبورِ

الفَرِيدَتان .. الكُبرى و الصُّغرى

إن قيل إن العالم يتطوّر ويتقدم ، فمن حقنا أن نتساءل: هل يسرى ذلك على عالم الجوارى أيضاً ؟ ومبعث ذلك التساؤل هو هاتان الفريدتان .. إذ طغت سيرة فريدة الصغرى على سَمِيّتها الكبرى الأسبق عليها ، حتى إن ذكرها قد ورد من قبل كزوجة للخليفة المتوكل ، وقلنا إن زواجه منها قد تمّ بناء على الثقة الزائدة منه فى كذبة كذبتها عليه ، وهى أن أخاه الخليفة السابق الواثق بالله كان متيّماً بها ، وكاد أن يعلن زواجه منها ، لولا أن المنيّة عاجلتة .. ومع ذلك لم تكن هى الزوجة المحبّة لزوجها ، أو التى تكون له سكناً أو جهة يهجع إليها وقتما يحتاج جسده أن يستريح ، ولكن هكذا زاد نصيبها من الحظوة .

أمّا فريدة الكبرى ، فمنشؤها بالحجاز جارية لدى آل ربيع ، ثم اشتراها أحَدُ آلِ البرامكة بعد أن تعلّمت الغناء ، ثم فرّت من وجه هارون الرشيد بعد نكبة مواليها .

والفرار هنا ، ربما يكون عجيباً !! لا معنى له !! هل هو خوف من الرشيد ؟ لقد طلبها الرشيد حقّاً ، ولم يكن لديها ما يخيفها منه !! هل هو عشق للبرامكة ووفاء لذكراهم ؟ إن أخبارها لم تحمل لنا شواهد من هذا الوفاء، لأن الخليفة الأمين استطاع أن يجدها ويضمّها إلى جواريه ، وظلّ حفيّاً بها إلى أن مات مقتولاً ، فخرجت من قصره بلا أى تأثر لفقده ، ثم تزوجت واحداً ، هو الهيثم بن مسلم ، وتزوّجت ثانياً من بعده هو السندى بن الجرشى . وهكذا ، كأن شيئاً من هذه العواطف الجياشة لم يكن لها نصيب

من الاحتفاء بها لديها ، وربما كان هذا هو السبب فى اقتصارها على هذا القدر من النصيب ، أن تكون زوجة ، وأن تؤدى الألحان كما ينبغى لها أن تُؤَدّى ، فتغنى من أشعار جميل

ألا أيــها الــرَّكْبُ النــيام ألا هبّــوا
نسائلكم ، هــل يقــتلُ الــرَّجُلَ الحبُّ
ألا ربّ ركــــب قــد وقفــت مَطِيّهُــمْ
عليك ، ولوْلا أنـــت لم يقـــف الركب

وبالتالى فإن المقارنة بين الفريدتين تقوم على الفارق الزمنى بين كُلٍّ من الأمين والمتوكل ، والذى يصل إلى ما يجاوز الخمسين عاماً ، اهتز خلالها مدلول الثقة ، الذى استطاعت فريدة الصغرى أن تعبث به ، هذا العبث الذى تمثل فى صدر البيت من البيتين السابقين .. « ركْب النيام » ، والربط بين النوم أو القتل .. « هل يقتل الرجلَ الحبُّ » . وكأن الشاعر كان يتنبأ للخليفة العاشق الواثق بمثل هذه النهاية .

فلقد كان من عادته فى مجالسه الغنائية أن يفرط فى الشراب حتى الثمالة ، فيغلبه النعاس وينام مَنْ معه مِنَ الندماء ، وفى ليلة من ليالى هذه المجالس الماجنة ، صحا من نومه على صوت لاثنين ـ ذكر و أنثى ـ يغنيان لحناً جميلاً ، فاضطربت دقات قلبه وغلا الدم فى رأسه ، ظنّاً منه أن الأنثى لابدّ أن تكون فريدة ، فلا أحد يجيد الغناء بأى لحن غيرها ...

ويجوز أن الخمر التى لعبت برأسه جعلته لا يميّز صوت حبيبته الجارية ، وربما أيضاً كان يعانى من شك دفين فى درجة إخلاص فريدة له ، فريدة الصغرى

بالطبع ، تلك الجارية الحظية التى استولت على قلبه وعلى كل أحاسيسه .. تصبح أول ما يخطر على باله .. من تلك التى تخونه من جواريه ، فيفقد توازنه، وينطلق باتجاه مصدر الغناء ، فإذا بيد تجذبه من الخلف فيلتفت إليها ، ليجدها هى فريدة !! وكاد أن يطيش صوابه ـ وما زال الغناء متصلاً ـ وسألها محتداً: « أهذا غناؤك ؟ ومع من و أنا نائم ! ؟

فضحكت متعجبة لتقول : « و هل توقف الغناء يا مولاى وأنت تسأل؟» وتنهّد مرتاحاً ليسأل : « ما الخبر إذن » ؟

فأجابت : « ربما راح مغنّ و مغنية ممن أحيوا مجلسك ، ليواصلا الغناء ساهرين وأنت نائم تنعم بالأحلام . »

وتساءل دهشاً : « من منهما الذى أسهر الآخر بعدما أدار رءوسنا جميعاً الشراب !! »

فأجابت وهى تحتضن عودها : « هو كل من لم يغلبه دوار الشراب ، تعالَ ، تعالَ اسمع منى ما يقولان .. » و شرعت فى غناء ما تغنّى به المغنى المجهول :

إنّى رأيتك فـــى المـــنام كأننى   مُترشِّفٌ مـن ريق فيـك البـــارد
وكأن كفّك فى يدى وكأنما   بتنا جميـعاً فى فـراشٍ واحــــد
ثم انتبهت ومنكباك كلاهمـا   فى راحتىّ وتحت خدّك ساعدى!

واهتزّ الواثق من وعيه طربا ، وأعلن عن سروره بالتصفيق وسأل متطفلا : «فبم أجابته ؟ »

قالت فريدة مغنية :

خيراً رأيتَ وكـل ما أبصـرتَه ستناله منىّ بـرغم الحاسـد

وتبيت بين خلاخلى ودمالجى وتجول بين مفاتنى ومجاسـدى

فنكون أنعم عاشقين تـعاطيا ملح الحديث بلا مخافة راصـد

فجحظت عينا الواثق دهشاً وسأل : «من يكون الحاسد ومن المحسود ؟ من هما يافريدة ؟ »

وأجابت فى تخابُث : « أمـا مَن همـا ، فعليك أن تبحث عنهمـا ، أمّا مَن الحاسد .. فهو أنت يا أمير المؤمنين !! »

فطار صواب الواثق مستفسراً : « أنا الحاسد !! علام أحسد ؟! بل ما هذا الذى يمتلكه المحسود وليس فى يدى !؟ »

وبثبات الواثقة من محدّثها نطقت : « القلب النابض بالحبّ ، العامر بالعشق يامولاى » .

وفهم الواثق ما لمع فى عينى فريدة النجلاوين من عتاب ، فاستنكر معترضاً : «كيف لا تحسّين بأن سائر قلوب من فى القصرعامرة بالحب ؟! »

فأجابت :« لأنك غضبْت لوجود محبّين يتغنيان بحبهمّا فى قلب الليل» .

قال : « وسأبحث عنهما لأجدهما. » وصفق منادياً الخدم يأمرهم بإحضار العاشقين .. وبعد أن انصرفوا مهرولين للقبض عليهما ، حاولت فريدة تهدئته فسألته بنغمة حانية :

«هل لى أن أسأل ماذا ينوى أمير المؤمنين أن يفعل بِمُحِبّيْنِ فى قصره العامر بالحب ؟ »

وهالتها إجابته وهو يقول : « سأزوجهما لبعضهما » .

وتهلل وجه فريدة الصبوح وهى تفتح ذراعيها فى صمت ، وقضيا جلسة غرامية فى أكثرها وغنائية بالأقلّ ، وتواصلت هذه المجالس ، مرّة تغنى له فيها

أهابك إجلالاً ومــابك قـدرة علىّ ، ولكنْ ملْء عين حبيبها

وما هجرتك النفس ياليـل أنّها قلتْكِ ، ولا أن قلّ منك نصيبها

ومرّة تشكو بغنائها ..

بليت ، وكان المـزح بدء بليتى فأحببت جهلا والبلايا لهـا بدْو

وعُلقت من يزهــو علىّ تجـبّراً وإنىَ فى كل الخصال لـه كفوْ

وفى هاتين المرّتين وغيرهما من المرّات ، كان يهتزّ طرباً ويصيح لتعيد وتجيد ، حتى إذا ماكان فى مرّ ة يصغى بشغف ، تبدّل حاله ، ولم يعد يهتزّ ، بل انتابته رعشة رفع خلالها رجله وضرب بها فريدة فى صدرها ضربة تدحْرجت منها من أعلى السرير ، فانكسر عودها مع قلبها ، ونهضت تجرى صارخة حتى اختفت .

وظلّ الواثق ساهماً حتى أفاق بعد ما يقرب من الساعة ، والتفت إلى نديمه الذى ظلّ قابعاً فى ركن من البهو ، كمن ينتظر لحظة النطق بإعدامه ، وأشار الخليفة إليه للاقتراب منه ثم قال : « ماقولك » ؟

فقال النديم وهو يحاول التظاهر بالثبات : « لا قول لى إلاّ الشهادة .. أشهد أن لا إله الاّ الله .. »

وضحك الواثق متعجباً ليقول : « أقول لك يا أبله مارأيك فيما بدر منىّ

نحوها؟.» وأحسن النديم بخطئه ، فهدأ روعه وتمتم معلّقا: « إنها تتسأهل هذا العقاب يامولاى.. »

وواصل الخليفة اندهاشه من نفاق نديمه .. وسأله : «علامَ عقابها يامنافق ؟ هل بدرمنها مايسىء ؟! »

وبرّر النديم خطأه بقوله : « إنك ياأمير المؤمنين ترى مالا قدرة لنا على رؤيته .»

وهدأت نفس الواثق وقال موضحاً : « نعم نعم ، رأيت أننى سأموت ، وأن المتوكل سيقعد فى مكانى هذا ، وتقعد فريدة بجانبه وتغنّيه هذا الصوت..

وما هجرتك النفس ياليل أنهّا   قلتْك ، ولا أن قلّ منك نصيبها .

تنفّس النديم الصعداء ، واستعاد مقدرته على الممالأة والمراءاة فقال هاتفاً : «بل يُقتل ـ ياسيدى ـ المتوكل ، ويحيا أمير المؤمنين » .

وطابت نفس الواثق ، فبعث بمن يحضر له فريدة ، وجاءت حاملة عودها الجديد ، وتكتسى بمازها من الثياب ، وما كاد يراها حتى جذبها إليه معانقاً وهويبكى كالطفل الذى فقط أبويه ، وأجهشت فريدة فى البكاء حتى شهقت ، فانخرطا فى نوبة تَّطهِّر بالدموع ، وسألته مستغربة : بأى شىء استوجبتُ هذا ؟! وزاد بكاؤها لمّا حكى لها ما ارتآه .. ثم قالت : «سألتك بالله ياأمير المؤمنين إلاّ ضربت عنقى الساعة ، وأرحتنى من الفكر، وأرحْت نفسك من الهمّ بى .. »

فاحتواها ثانية وغمرها تقبيلا ، وأمر بأكياس الفضة والذهب لينثرها بين يديها ، ثم أخرج من درج قريب عقداً لايقدّر بثمن، طوّق عنقها به .

لكن الواثق كأنه كان يقرأ صفحات المستقبل،فتحقق ماتخيله أو هُيِّئ إليه،ومات ليحلّ محله في الخلافة المتوكل،وليجلس في نفس المكان، وبجواره تجلس فريدة الحظية ، لكنها تتخذ مكانها هذه المرة زوجة معلنة شرعاً للخليفة الجديد .. لتمحو تماماً كل أثر لفريدة الكبرى التي سبقتها .. وسبحان الله موزّع الأرزاق والرافع والخافض .

جَيْـــــــداء

قد تكون جارية نعمت بما كان عليه أهل بغداد عامة ، وخلفاء بني العباس خاصة ، ومن عِزٍّ ومن جاه ، لكنها عندما انتقلت لتكون جارية لسيف الدولة الحمداني ، انقلب حالها ، لا إلى النقيض بل إلى التطور المعهود لجارية تلقى الرضا والإعجاب من مولاها الجديد ، الملك والقائد المحارب الشجاع ، كبير دولة الحمدانيين ، فنالت الحظوة عنده ، وصارت حظيته الأريبة التي تلقى منه كل تعاطف وتكريم .

وجيداء تستحق كل هذا ، فهي لبقة الحديث ، ذوّاقة للشعر ، نقّادة له، فكثيراً ماكانت تناقش العلماء والشعراء ، بل كثيراً ماكانت تطارح مولاها الأول المهلّبي وزير سيف الدولة ، وكذلك مولاها الثاني الملك بعد أن أهداها إليه وزيره .

ولقد فتن بها سيف الدولة على الرغم من كثرة مشاغله وحروبه، فضلا عن شخصيته التي عرفت بالاتزان والترفّع عن المساخر ، وهو معذور في افتتانه بها، لأنها كانت على قدر كبير من الجمال وعذوبة الصوت في الغناء .. حتى إن وصفها ورد في مسالك الأبصار بهذا النص :

«كانت شبيهة بالغزال فى نظرٍ فاتن ، إلى سرٍّ فيها كامن ، تغنىّ فتحرك كل ساكن ، وكأن هاروت وماروت فى حسنها ، لو اعترضت سَرِيَّة عيس لأَوْقفتْها عن السرح ، أو سمعتها أُذُن بلقيس لأَلْهتْهاَ عن الصَّرْح .

فلا عجب أن يقتطع من وقته المزدحم بالمشاغل جزءًا يرفّه فيه عن نفسه ، ولا عجب أن تكون مجالسها القليلة القصيرة خالية من التبذل والمجون، ولا عجب أن يجعل جيداء بالقرب منه وراء ستار ، ويرفعه لينعم برؤيتها بين كل لحظة وأخرى حتى ينفض المجلس ، كما أنه لا عجب أن تَشْحَذَ قريحته وتوحى له بقول الشعر إبداعاً ، فتتلقفه جيداء بالتلحين والغناء .. كقولها تغنى له :

يا طُولَ شَوْقى إلى الرَّحيل غَدَاَ
ويابلائى منه إذْ وَفَدَاَ
أضنانى الحبُّ إذْ تعرَّض بى
ما قتل الحب هكذا أَبداَ

وقد بلغت بها الثقة فى مقدرتها على النقد ، أنها كانت تنتقد قصائد المتنبى فى مدح سيف الدولة ، وكان مولاها يتقبل نقدها ، ولكن لا ينقله للمتنبى ، إلى أن دبرّ يوماً جاء فيه المتنبى ، وهى جالسة كعادتها من وراء الستار ، وشرع الشاعر الفحل يقول :

لكل امرئى من دهره ما تعوّدا وعادات سيف الدولة الطَّعْنُ فى اَلعدَا

وعندما وصل إلى قوله :

تركْتِ السرّى خلفى لمن قَلَّ ماله وأثقلت أفراسى بنعماك عَسْجَدَا

وقيّدت نفـسى فى هـواك مـحبّة ومن وجد الإحسـان قيـداً تَقيّدا

حتى اهتزت طربا وإعجاباً بالصدق الذى شعرت به فى ظروف مجيئها من نعيم الرفاهية لدى بنى العباس ، إلى ميدان الحروب والتقشّف .. فصارت تنعم بهذا النوع من الحياة أكثر مما كانت عليه ، لالشيء إلاّ لأنها شعرت بقيمتها وكرامتها ، فتناولت عودها ولَحّنت ما فرغ المتنبى من إنشاده ، وهمست طالبة من مولاها الإذن لها بالغناء ، فصرف من فى مجلسه فيما عدا بعض خاصته وفى مقدّمتهم المتنبى وكان مازال يردد

إذا أنت أكرَمْتَ الكريم ملـكته وإنْ أنت أكرمت اللئيم تمـرّدَا

وظل صوت جيداء يشجيهم باللحن الرائع ، حتى إن المتنبى نفسه اعترف قائلا : «والله ما ظننت إلاّ أن المجلس يرقص بنا » وظل سيف الدولة يستعيد الغناء وهى ترده حتى مضت سحابة نهارنا ! وما انصرفت من المجلس حتى أمر لى سيف الدولة بجائزة طيبة ، فقلت : هى والله ياأمير المؤمنين أحق بها منّى ! بالله إلاّ ما جعلتها لها ! قال سيف الدولة : «هى لك ولها مثلها » .

وبالطبع كانت هذه من المرّات القلائل التى يجزل فيها سيف الدولة العطاء ، ولا يثقل ذلك كاهل الخزانة ، ومع ذلك لم يزدها هذا الشحّ في الإنفاق إلاّ رضاً وقناعة ، وازدادت بذلك حشمة ووقاراً كلما غنتّ أو تحدثت، فصارت أقرب إلى النديم لسيف الدولة فى مجالسه الأدبية .. العام منها والخاص على السواء .. والناس على دين ملوكهم .. إذ تشربّت من مولاها أخلاقيات من الجدّية والاعتدال فى تذوق لذائذ الحياة ... ولوْلا إعجاب كل منهما بالآخر ووجود قدر من عاطفة الحب بينهما .. لسار كل منهما إلى

حال سبيله .. بل إنه يمكننا القول إنها جيذاء التى بذلت جهداً أكبر فى التحملّ وتقبل هذه الحياة غير المرفهة .. لأنها شاهدت نعيم بغداد وتقلب رجالها فى النعيم والملذات ، ولمست مقدار ما يلحق بهم من مهانة وهزء ، ومدى ما يسعد به جوارى القصور هناك من تبذّل وفجور وعطايا . ومع ذلك داست على هذا كله ، فى سبيل أن تعيش فى كنف ملك محترم .. وكم غنت له قائلة :

لا أستطيع سُلُوّا عـــن مَــودّتـــهـــا

أو يصنعَ الحبُّ بى فـوق الذى صنَعَا

أدعو إلى هـجرها قلـبى فـيسعدنى

حتى إذا قـلـت هـــذا صـــادق فزعَا

أو تقول مؤكدة :

منّا الوصـــال ومنـــكم الهـجر   حتـى يفُرّقَ بيـننا الـدهـرُ

واللـه ما أسْـلُوكـــمُ أبـــداً   مـالاح نجـمُ أوبـــدَا فـجرُ

حتى عندما كان يحدثها سيف الدولة عن الهوى والغزل ، كانت تجيبه مغنية .

هيَجّتْ بالقـول الـذى قُـلْـتَهُ   داءً بقلبى ما يزال كـمـيـنا

قد أينعت ثمـراته فـى طينـــهـا   وسُقينَ من ماء الهوى فَرَوينا

كـذب الذين تقَـوّلوا ياســيدى   إنّ القلوب إذا هَوَيْنَ هَـوِينا

بعد ذلك كله ، يكون من حقنا أن تساءل .. بعد أن بلغت جيداء فى قلب سيف الدولة كل هذه المكانة فكانت حظيته الوحيدة: لماذا لم يتزوج منها وينجب الولد مثل سائر الحظايا البغداديات؟ .. أقول اجتهاداً : ربما لنظره دونيّة كامنة فى نظر الملك المحارب الوقور سيف الدولة ، أو لحياة التقشف التى انتهجها الرجل لكى ينفق على حروبه مع الروم ، فلم يكن يرى داعياً للمساخر والمعاشرات الجنسية التى أوحل فيها غالبية خلفاء بنى العباس .

وهنا مربط الفرس ، الاختيار بين أمرين ، كلاهما ثقيل مرّ : تحرير شعوب الروم من جوْر ملوكهم ، أم الاكتفاء بتحرير جارية وعتقها بالزواج منها، إنه اختار الاختيار الأول ، وترك جيداء جارية من الدرجة الأولى لديه . وهذا قَدَرُ جيداء .

تُحْفَــة الزَّاهِــدَة

هى فى بعض الجوانب قريبة الشبه من رابعة العدوية ، كلتاهما جارية ، وكلتاهما لاقت من العنت والصلف من مولاها ماينوء به الرجال ، وكلتاهما رفضت حياة التبذّل والتدنى ، وكلتاهما غنّت على مضض ، وجالست الرجال كارهة .

لكن تحفة آلت إلى مصير يختلف عن رابعة ، إنها كانت فى حوزة تاجر جشع من تجار بغداد ، واشتهرت بجمال الوجه ، وإجادة الغناء إذا غنّت ، ورقّة الشعر كلما قرضت ، وخوفها من الناس إذا أجبرت وجلست ، وعلى الرغم من جشع سيدها لم يُفرّط فيها إذ رفض مبالغ طائلة ليبيعها ، وربمّا كان ذلك لتعلّقه بها أوحبّه لها ، أو ربما لإعراضها عن مجالسة ضيوفه ، فكانت تهوى الوحدة وتهفو إلى السهر فى ظلمة الليل تشدو لنفسها ولمن تتحسس الطريق

إلى معرفته.. من هنا اتصفت بالزاهدة

وذات ليلة جلست بالعود الذى كانت تعزف عليه وهى تدندن :

وحقك لا نقضتُ الدهر عهدًا
ولا كدرت بعد الصَّفْو وُدًّا
ملأت جَوانحي والقلبَ وجدًا
فكيف ألذُّ أو أسْلو وأُهْدىَ ؟
فيا من ليس لى مَوْلى سِواَه
تراك تركتَنِى فى الناس عَبْدًا

ثم كسرت العود وقامت فبكتْ وانْتَحَبْتْ .

وفزع سيّدها الغبىّ مما فعلت ، إذ ظنّها فعلتْ ذلك بدافع الحب وألقى باتهامه لها فى وجهها ، فوجمت دون أن تلقى له انتباهاً، فاشتط غضباً ، وشرع فى تعذيبها دون رحمة أو هوادة ، وكلما سالت دموعها والتزمت الصمت الرهيب ، زاد غيظاً ورُعونة فينهال عليها بالسوط دون مجيب .. حتى يكلّ ذراعه ، ويتهاوى بجانب سوطه لاهثاً والشرر يتطاير من عينيه ، فيخرج متوعّدا بمزيد من التعذيب إن لم تبح له باسم ذلك الحبيب .

ويظل يسأل ويتقصّى عمن استولى على قلبها وعقلها دون إذن منه !! ويتابعها متسمّعاً لها فى وحدتها وذهولها الصامت ، وأنينها الخافت فيظنه نواحاً، ليقتحم عليها خلوتها يسألها إنْ كان قد مات هذا الذى تنوح عليه ، أم أنها تريد أن تغيظه وتقض مضجعه بغنائها الحزين ..

خاطبنى الحقّ مــن جنـانى فكان وعـظى عـلى لـســانى
قرّبنى مــنه بعـد بُـعــد وخَصَّنى اللـه واصــطـفانــى
أُجبتُ لمّا دُعيــتُ طــوعـاً ملبــيــا الــذى دعــانــى
وجَدْتُ مماجنيــت قــدْما فـأوقــع الحــبّ بالأمـــان

وتنتاب الرجل ثورة عارمة ، فتخرج كلماته كالرصاص وهو يسبّها ويسألها ، ممّ تتوبين ؟ ماهذا الذى ارتكبته من وراء ظهرى ، وتريدين أن أصفح عنه وعنك ؟! فتواصل الإجابة بالبكاء الحار ، لعلها تستطيع الاقتراب من إفهامه ..

فيــا من ليـس لى مولى سواه تراك تركتنى فى الناس عبـدا .

ولما تكررت منه محاولاته ، دون رغبة منه فى الفهم ، أسلمه صمتها إلى اليأس ، ودفعته دموعها إلى إدخالها المارستان ، لعلّ بها مسّاً من لوثة العقل،يستطيع أطباؤه أن ينتشلوها منه .. وما السبيل إلى الشفاء فى مارستان بغداد ؟!!

حارس عملاق ، سلاسله هى الترياق !! يقيد بها يديها ورجليها ، ويقذفمها فى جحرة حالكة السواد ، لعلّ الخوف يقتلع منها مارسب فيها من هوس ، وما إن وجدت نفسها هكذا .. مزيدة القيود ، ولاتميّز مما حولها شيئاً ، فلم تقدر على شيء إلاّ أن تبكى وتغنىّ بدون عود :

أعيـذك أن تُغِــلّ يــدى بغيـر جـريمــة سبــقَــتْ
تغــلّ يـدى إلـى عنـقــى وما خــانـت ومــا ســرقــتْ

وبــين جـوانـحـى كبــد أحسّ بهــا قـد احــتـرقتْ
وحقّـك يا مُنــىَ قـلبــى يمَـينـاً برّةً صــدقـــتْ
فلو قطـعـتــهاَ قـطـعــاً وحقك عـنـك مــارجعــت

وطالت أيام وأيام ، وهى ملْقّى بها فى غياهب الظلام ، حتى جاءها الصوفى الشهير السرىّ السقطى يعودها ، فسأل عنها الحارس ، ولم يزد الحارسى فى الإجابة عن أنها « جارية مجنونة حبسها سيدها هنا » .

وكان وقع كلمات الحارس شديداً على سمع تحفة ، فهانت عليها نفسها وبكت ، لكنها أرادت أن تنفى هذه الفرية ، فأنشدت:

معــشر النــاس ما جننــتُ ولكن أنا سكرانة وقـلبى صـاحــى
أغلَـلتّـم يدى ولـم آتِ ذنــبــاً غير جهدى فى حبه وافتضاحى
أنـــا مفــتونة بـــحب حبيــب لست أبغى عَنْ بابه من بـراح
فَصلاحِي الذى زعمــتمُ فَـسَادى وفسادى الذى زعمتم صلاحى
ما على مَنْ أحَبّ مولْى الموالـــى وارتضاه لنفـــسه مـن جُــناح

وكان وقع هذه الأبيات مخالفاً لما فهمه الحارس ، فدمعت عينا الرجل الصوفى ، ولمحته تحفة فى الضوء القادم من الخارج .. فقالت :

ياسيدى ، هذا بكاؤك من وصفه ، فكيف لوعرفته ؟ .. وأنشأت تقول:

ألبستنى ثوب وصل طاب ملبسه
فأنت مولى الورى حقا ومولائى

كانت بقلبى أهواء مفرقة
فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائى

من غص داوى بشرب الماء غصته
فكيف يصنع من قد غص بالماء ؟

قلبى حزين على ما فات من زللى
والنفس فى جسدى من أعظم الداء

والشوق فى خاطرى منى وفى كبدى
والحب منى مصون فى سويدائى

إليك منك قصدت الباب معتذراً
وأنت تعلم ما ضمته أحشائى

وحاول السرى أن يخفف ويسرى عنها ، فسألها متجاهلاً : سمعتك تذكرين الحب ياجارية .. فمن ترى تحبين ؟ لكنها صمتت ولم تجب ، كأنها أدركت ما يستهدفه من التسرية عنها ، ثم عادت إلى شرودها متمتمة بنغمة حانية :

قلبى أراه إلى الأحباب مرتاحا
سكران من راح حب بالهوى باحاً

ياعين جودى بدمع خوف هجرهم
فرب دمع أتى للخير مفتاحاً

ورب عـــين رآهـــا اللـــه باكيـــــة

بالخـــوف مـــنه تنـــال الـرَّوْح والرّاحـــا

للـــه عبـــدٌ جـــنى ذنبـــاً فأحـــزنـه

فـــبات يبـكى ويـــذرى الدمـع سفاحـــا

وضاقت نفس السرّى من إصرارها على عدم مصارحته ، لكن نفس الصوفى طفت ببسمة صافية على وجهه ، وانصرف يغالبه الارتياح وتناوشه الأحزان ، وهو يعتقد فى قرارة نفسه أن تحفة لابدّ منتصرة على عذاباتها ، لابدّ ، وحتما ستخرج من سجنها المارستانى حيّة أم ميتة .. وكلاهما تحرر من شدة القيد .

ولمّا طال حبسها دون طائل ، ويئس مولاها من شدّها إلى الرذائل ، أوحتى للغناء فى مجالسه الخاصة ، وقبول ندمها إن صارحته باسم حبيبها ، وعفوه عنها إن عادت إلى سابق عهدها ـ أخرجها من محبسها ، وأطلق سراحها فأعتقها .

ولم تنطلق إلى مكان غير مكة المكرمة ، ولما دخلت الكعبة المشرفة هللت تغنىّ

فهَمْتُ بحبّه وسهرتُ فيه ... فلستُ أريدُ محبوباً سواه

كذاك منِ ادّعى شوقاً إليه ... يَهيمُ بحُبّه حتى يراه .. !!

وماتت بداخل الكعبة ، وعلى شفيتها ابتسامة الرضا مقتربة من محبوبها. وبمقياس الجوارى والحظايا ، لا يمكننا إلاّ اعتبارها جارية لرجل مجهول من عامة الناس ، فضلا عن القناعة والزهد الذى كانت عليه تحفة ، فنأت عنه وعن الناس ، ورضيت بعزلتها وتحملت تعذيبها ، وتماسكت أمام

حبسها .. حتى كتب الله لها العبودية له وحده ، فذهبت لتحظى بِقُرْبه فى رحاب ملكوته .

نُعْمَى

جارية موروثة عن أب مات تاركاً لولده أموالاً طائلة ، وممتلكات متنوعة ، فيها الجوارى ، ومنها هذه الجارية نعُمى . والابن الوارث حاله كحال الوارثين، لم يَشْق فى جمع ما ملك ، ولم يعِ للثراء من قيمة غير ما بذّر وهلك ، أخرق اليد ، سفيه التصرف، لكنه ـ والحق يقال – كان بهىَّ الطلعة جميل المحيا .. ذلك هو ظريف بن نعيم .

وكانت جوارى بغداد يلتقطن أخبار صاحبنا ظريف ، ويتمنّين أن يكُنَّ جوارىَ له يرفُلن فى النعيم والللذات بين ذارعيه أوتحت قدميه ، ويغنين له كل مايريد من أعذب الألحان وأنقى الأصوات .. لينلن حظوتهن من العطايا والجواهر .

وظريف غارق لأذنيه فى المشارب ، يغترف من المسّرات ، ويغترف من ماله بقدر ما شرب وابتهج ، ولّما نضب المال جفّت المشارب ، وكاد يظن أنه أنقذ من الغرق لولا جفاف حلقه ، فوجد أن بإمكانه أن يبلّ ريقه بما تبقى من ممتلكاته ، فأخذ يبيع من جواريه واحدة وراء واحدة ليضمن دوام مشربه ، حتى أفاق على آخر جواريه وحيدة تكاد تنفد من بين يديه .. فحمد الله أن لم يفـرّط فيها ، فهى أقرب جواريه إلى قلبه ، وأخلصهن فى حبه ، وأرضاهن بالعيش القليل فى بيته ، فقنعت بالحياة معه بلا مجالس أنس أو غناء ، وغلقت معه الأبواب ، فأكبر فيها نبل معشرها ونقاء معدنها لقبولها وضعاً

جديداً يسوده الهدوء ، وتتوافر السعادة بين قلبيهما ، فصارا أقرب إلى العاشِقيْنِ السعيدين ، لا ينظر إلى أنثى إلاّ نُعْمى ، وهى لا يملأ عينيها إلاّه .. ولم يعد من حديث لأهل البصرة غير هناء ظريف ونعمى

والناس فيهم السعيد لسعادة الآخرين ، كما أن فيهم الحزين لهذه السعادة ، يحقد على بصيص الفوز الذى يتمتع به غيره ، يريد الاستحواذ على كل مايزيد بهجته وخيره .

ونعمى بالطبع جارية من هؤلاء الجميلات الفاتنات ، فضلاً عما ثبت لديها من أصالة معدن ،وقوّه حديث وخلق ، وعذوبة صوت مقتدر على الغناء.. مما جعلها محط أطماع الطامعين ، والطامع القادر تحدثه نفسه بامتلاك الكون والعياذ بالله ، طمع واحد منهم فى امتلاك نعمى ، وظن أن إعسار مولاها ظريف ، سوف يجعله يقبل ببيعها بسهولة ، إذا ما عرض عليه ثمناً مغرياً . لكن خاب ظن الطامع ، وخرج من لديه بِخُفَّىْ حُنَيْنٍ ، فأبت عليه كرامته وأطماعه إلاّ أن يؤلب عليه الحاكم .. ومن هو هذا الحاكم ؟ لقد كان الحجّاج بن يوسف الثقفى . وكانت تربطه بالرجل صداقة . استغلّها لنيل مأربه وامتلاك نُعمى عنوة ، فلجأ إلى الأسلوب الذى يضمن به تحقيق مأربه ، إذ وشى به أن ظريفاً يناصر العلويين على بنى أمية ، وثارت ثائرة الحجاج ، إذ كان من عيوبه أنه يأخذ بالظّنة ، فلا يتأنى ليتحقق من مبلغ صدق الوشاية ، ولا يتروى ليستكمل الدافع من أسانيد الاتهام .

وأمر الحجاج جنوده بالقبض على ظريف عدو بنى أمية ، ونفّذ الجنود الأمر ، وصادروا داره ، وحملوا جاريته نُعْمى إلى قائدهم الحجاج .. فما إن

رآها حتى انبهر بجمالها .. وانفرجت أساريره وخفّف من حدة صوته وهو يشير للجنود قائلاً : هيا اصحبوها إلى دارى لتعيش بين جوارىّ .

وأسقط فى يد الصديق الواشى ، ولم تسعفه حيلته فى استخلاصها لنفسه.

أمّا الفتى ظريف ، فقد ألقى به فى غياهب السجن ، وأسلمته المفاجأة الظالمة إلى نوبة ذهول ، ذهبت بعقله ، وظلّ يدقّ جدران السجن برأسه ، إلى أن يفقد توازنه فيسقط ، وبلغ الحجاج ماحاق بالفتى ، وما انتاب أعصابه من انهيار ، فأمر بالإفراج عنه وإطلاق سراحه ، على أنْ تُرَدَّ إليه داره .. وخرج الفتى رافضاً البقاء فيها ، عندما افتقد نُعْمى ، وهام على وجهه كالمجنون فى الطرقات .. حتى ساقته قدماه إلى دمشق ، فشجعه أهل الخير على أن يقصد باب الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان .

أمّا نُعْمى ، فلم يكن الحجاج بالرجل الذى تستهويه امرأة ، أوتقوده جارية ، مهما بلغت درجتها من الجمال ، فهو رجل إدارة وقتال ، ولا وقت لديه إلاما يقضيه فى دعم أركان الدولة الأموية وإلحاق الهزائم بأعدائها أينما كانوا ، فضلا عن أن استرضاءه للخليفة عبد الملك بن مروان كان يحتم عليه إهداءه على فترات متفاوتة جارية تبلغ القمة فى الحسن والجمال ، ويظل منتظراً رأى سَيِّده أمير المؤمنين فى هديته .. فكانت نُعْمى من تلك اللائى وقع عليهن الاختيار . ترى هل آن الزمن لنعمى أن يبتسم لتنعم أوتحظى بقبول وإعجاب ابن مروان ؟ هى بالفعل حازت الرضا ، ونالت الإعجاب .

ولما مثل الفتى المخبول بين يدى أميرالمؤمنين عبد الملك ، يشرح له حاله

ويقدّم شكواه ، رق قلب الخليفة لحاله ، وودّ لو يحقق له مطلبه في شكواه لكن عبد الملك الشغوف بكل جميلة في جواريه ، أشفق على قلبه أيضاً أن يفرّط في نُعْمَى ويأمر بإعادتها إلى مولاها الأول .. ووجد كل مبررات الاعتذار متوافرة ، فظريف المخبول لم يعد يؤتمن على إيوائها بجواره ، وظريف الفقير لم يعد بقادر على تلبية مطالب هذه الظبية المرفهة ، فقال له : يافتى ـ جئت متأخراً . »

والفتى ظريف عرف قدر نفسه ، وعرف أنه لن يستطيع أن يقف نداً لرغبات الخليفة ونزواته ، كما أنه متأكد أنه لن يقدر على الحياة وحده بدون نعمى .. فتلعثم قائلا :

ياأمير المؤمنين أريدها لحظة من الزمن تغنى فيها ثلاثة أصوات ثم افعل بى ما تشاء . ولمس عبد الملك مبلغ تواضع طلب العاشق المخبول ، ووجد أن لا مانع من تحقيق آخِرِ مطالبه ، فأمر بإحضار نعُمى ..

وجاءت تحتضن عودها ، ولمّا وقع نظرها على ظريف ، هالها مارأت ، رأته ذايلاً مخبولا ، كث الشعر والذقن ، فانكفأت على وجهها حزينة باكية ، ورقّ قلب الخليفة ـ لماَ رأى من نعمى ، فأذن لظريف بالجلوس ، كما أشار للجارية أن تلبى له ما يريد . وثبت الفتى عينيه عليها ، وقال : غنى يانعمى قول صاحِب لُبْنَى ..

فاستجمعت نعْمى قواها وغالبت بكاءها لتغنى :

لقد كنتُ حَسْبَ النفس لَوْدامَ وَصْلُنا
ولكنَّما الدنيا متاع غرور
سأبكى على نَفْسِي بعينٍ غزيرة
بُكاء حزينٍ فى الوثاق أسير .
وكُنَّا جميعاً قبل أن يظهر النّوى
بأنعم حالَىْ غبطة وسرور
فما برح الواشون حتى بَدَتْ لنا
بطونُ الَهوى مقلوبةً بظُهُور

وخيمّ الحزن على المجلس ، حتى الخليفة انتابته حالة من الإطراق الحزين ، ولم يرفع رأسه إلاّ عندما طلب ظريف أن تغنّى أشعاراً من صاحب بثنية .. وأطاعت نعمى :

فياليت شعرى هل أبِيتَنَّ ليلةً كَلَيْلَتِنا حتى نرى سا طِعَ الفجر ؟
تجود علينا بالحديث وتارة تجود علينا بالرّضاب من الثغر
فليت إلهى قد قضى ذاك مرّة ويعلم ربى عند ذلك ماشكرى ؟
ولو سألت منى حياتى بذلتُها وُجدت بها إن كان ذلك من أمرى

واستسلم الفتى لحالة إغماء ، أفاق منها بعد لأيٍ ليطلب من نعمى أن تغنى قول مجنون ليلى .. فاندفعت تغنى بحرارة :

عرضت على نفسى العزاء فقيل لى
مِنَ الآن فَايْأسْ لا أعَزَّكَ مِنْ صَبْرْ .

إذا بـــانَ مـــَنْ تهَــوى وأصبـــح نـــائيـــاً

فلاشيءَ أجْدَى من حـلُولك فى القبر .

ولم تكد نعمى تصل إلى آخر البيت ، حتى نهض ظريف واندفع إلى النافذة فألقى بنفسه منها ليموت .

وفوجئ الجميع بما جرى ، حتى إن عبد الملك هالة الأمر ، وظلّ يكررّ.. رحم الله الفتى .. رحم الله الفتى .. يعلم الله أنى ما كنت أنوى أن أردّ نعمى إليه ، ألاَ وقد كشف المسكين عن صدق عشقه ، فلا حق لى فى وراثة . وطلب إلى أحد خدمه .. أن يسلم نُعْمى إلى أحد ورثة ظريف، أو فليتصدق بها على صاحبها .

واصطحب الخادم الجارية ، وفى الطريق ، لمحت بئراً بها ماء عميق ، فشدّت يدها من يده وهى تصيح :

مـن مـــات عشـــقا فليمـُــتْ هـــكذا

لا خيـــر فـى عشْـــقٍ بـلامـــوت

ثم قذفت بنفسها فى البئر وغرقت .

وهكذا اختتمت حياة العاشقين : أحدهما مولاها السيدّ ، والأخرى جاريته ، التى كادت أن تكون حظية أمير المؤمنين ، لولا أن كل شيء نصيب

* * *

المراجع

الأغانى للأصفهانى ط الهيئة العامة للكتاب

نهاية الأرب للنويرى ط الهيئة العامة للكتاب

العقد الفريد لابن عبد ربه ط لجنة التأليف والترجمة والنشر

المقدمة لابن خلدون ط دار الكتب .

تاريخ الرسل والملوك للطبرى ط دار المعارف .

محاضرات الأدباء للأصبهانى ط الأزهر .

النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ط الدار المصرية للتأليف .

عيون الأخبار للدينورى ط الدار المصرية للتأليف .

المفضليات للضبى ط دار المعارف .

الأصمعيات للأصمعى ط دار المعارف .

ديوان الهذليين ـ ط مؤسسة التأليف والنشر .

النقائض للدكتورأحمد الشايب ط النهضة المصرية .

نساء الخلفاء أوجهات الأئمة الخلفاء ـ لابن الساعى ـ ط دار المعارف .

مفاخرة الجوارى والغلمان للجاحظ ط دار المكشوف

أخبار النساء لابن قيم الجوزية ط دار مكتبة الحياة .

القيان والغناء فى العصر الجاهلى ـ للدكتور ناصر الدين الأسد .

ط دار صادر ودار بيروت

نساء لهن فى التاريخ الإسلامى نصيب للدكتور على إبراهيم حسن .

ط مكتبة النهضة المصرية

العصر العباسى الأول والثانى .. للدكتور شوقى ضيف . ط دار المعارف

الجوارى المغنيات لفايد العمروسى ط دار المعارف .

الفهرس

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع ٣٥٩٤ لسنة ١٩٩٣
الترقيم الدولى
I.S.B.N
977 — 270 — 064 — 6

هـذا الكتـاب

يحتوى هذا الكتاب على ست وأربعين من شهيرات الجوارى . . فى عصور . . الجاهلى ، الأموى ، العباسى والأندلسى .

واختلفت شهرة كل واحدة منهن عن الأخريات ، تبعاً لعدة عوامل أهمها : الموهبة وإحساسها بقيمتها مع كيفية استغلالها لها ، وكذلك طبيعة الأمور المحيطة بها فى قصر الخليفة أو الأمير ، ومدى مطابقتها بين موهبتها وبين دائرة نشاطها وذكائها .

ولم تكن ظاهرة إقتناء الجوارى مقتصرة على موضع دون آخر ، وإنما سادت الشرق والغرب على السواء . . من جرّاء كثرة الحروب ، وما ينتج عنها من غنائم وأسلاب ، وعبيد وسبايا ، وكذلك اعتراف المجتمعات القديمة بتجارة الرقيق وأسواق النخاسة . . حتى تشابهت خبرة النخاسين فى تقدير أثمان الجوارى ، بخبرة تجّار الدواب فى العصر الحديث .

لكن فئة من الجوارى تفوّقت على غيرها بنوال الخطوة . . لا لشىء إلاّ لتمتّع كل منهن بلقب أم الولد ، بعد أن تنجب لوليّها الخليفة ولداً يعترف به ويصير للعهد وليّا فيرتقى سدّة الخلافة ، وترتقى بالتبعية معه أمه المحظوظة .

ترى كم منهن صرن كذلك ؟!!

الناشر



الدار المصرية اللبنانية
طباعة • نشر • توزيع
١٦ شارع عبد الخالق ثروت - تليفون ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٣٦٧٤٣ - فاكس: ٣٩٠٩٦١٨ - برقياً: دار شادو - ص.ب: ٢٠٢٢ - القاهرة
AL-DAR AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH
PRINTING — PUBLISHING — DISTRIBUTION
16 ABD EL KHALEK SARWAT St. P.O.Box 2022-Cairo-Egypt PHONE: 3936743-3923525 FAX: 3909618 CABLE DARSHADO